لله ثم لمصر

محمود الحسنات

لله نمضي

محمود الحسنات

الإهداء

تجاعيدُ وجهكَ
كانتْ تحكي قصّة طريقٍ معبَّدٍ شققته لي
لطالما استندتُ عليكَ كأنكَ
أكثر الأشياء ثباتًا في هذا العالم
يا أبتي! يا أول الأبطال وآخرهم في عيني!
أهديكَ هذا الكتاب

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾

حين تَعْلَم أنَّ كل شيء مكتوبٌ..

وأحصاه الله ونسوه؛ فلا بُدَّ أن تَنْتَبِهَ لما تَتْرُك من أثر.

والنبي ﷺ يقول: «**سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ، وهُو فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ كَرَى نَهْرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ**» [مسند البزار: **7289**].

ما هي آثارَك بعد الموت؟ وماذا تركت لمَنْ بعدك؟

ما هو الذي قَدَّمتَه في هذه الحياة مِنْ خير؟

كم جاهلًا علَّمْتَه؟ وكم تائهًا أرشدتَه؟

كم ضالًّا حاولت هدايته؟ وكم فقيرًا كَفَيْته؟

كم محتاجًا أعطيته؟ وكم سائلًا لم تنهره؟

كم كلمةً طيبة غَرَسْتَها في نفوس الآخرين؟

كم حديثًا عن النبي ﷺ بلَّغت؟

كم مرّةً بين متخاصمين أصْلَحْت؟

وكم مرةً اشتركت في أعمالِ الخير؟ كم وكم وكم وكم؟

يقول الله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: 84]

أي: واجعل لي ذِكْرًا جميلًا بعدي أُذْكَر به، ويُقْتَدى بي في الخير.

إن كنتَ ترغَبُ أن تَتْرك لك أثرًا عظيمًا؛ فكُنْ صاحب نيةٍ صالحة، وقلبٍ سليم، وهدفٍ عظيم.

وبذلٍ كبير، وعزمٍ أكيد، وهمّة وأعمال دؤوبة متتابعة!

واجعل لك ثَغْرًا مناسبًا لقدراتك ومهاراتك تَقِفُ عليه،

تكفي فيه أُمتك وتَمْنَع بوقوفك على ذلك الثغر أسْهُم الأعداء المُوَجَّهة إليها.

وأوَّل الأعداء معروف هو الشيطان..

ولا تنسَ أبدًا أنَّ الشيطانَ ليس فقط الشيطان المعروف..

وإنما هناك شياطين الإنس أشَدّ خطرًا.

فما أكثرَ ثغور الأمة وأقلَّ حُرّاسها! وما أعجب أحوالنا حيالها!

كلُّنا يغدو فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها.

لذلك حين قِيلَ: يا رسولَ اللهِ! مَن أحبُّ النَّاسِ إلى اللهِ؟ قال: «أحبُّ النَّاسِ إلى اللهِ تعالى أنفَعُهم للنَّاسِ، وأحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ ﷻ سُرورٌ تُدخِلُهُ على مُسلِمٍ، أو تَكشِفُ عنه كُربةً، أو تَقْضي عنه دَيْنًا، أو تطرُدُ عنه جوعًا، ولَأَنْ أمشيَ مع أخٍ في حاجةٍ أحبُّ إليَّ مِن أنْ أعتكِفَ في هذا المسجِدِ -يَعْني: مسجِدَ المدينةِ- شهرًا، ومَن كَفَّ غضبَهُ سترَ اللهُ عَورتَهُ، ومَن كظَمَ غَيظَهُ ولو شاء أنْ يُمضيَهُ أمضاهُ ملَأَ اللهُ قلبَهُ رجاءً يَومَ القيامةِ، ومَن مشَى مع أخيهِ في حاجةٍ حتَّى تتهيَّأَ لهُ أثبَتَ اللهُ قدمَهُ يَومَ تزولُ الأقدامُ»

[الأوسط للطبراني: 6026].

و«إنَّ سُوءَ الخُلُقِ يُفسِدُ العملَ كما يُفسِدُ الخَلُّ العسلَ»...

[مسند عبد بن حميد: 799].

فكُنْ مِنَ الذين يجمعون الشمل.

ولا تكُن من الذين يُفَرِّقون الناسَ أشتاتًا.

لا يلزم أن تكون ذا مال فتعطي المحسوسات المادية حتى تكون ذا أثرٍ طيبَ!

كلا!

ولكن إذا جاءك المهموم اسمَع.

وإذا جاءك المُعتذر اصفَح.

وإذا ناداك صاحِبُك لحاجةٍ انفع.

وحتى إن حصدتَ شوكًا يكفيك أنَّ لك نيَّةً طيبةً في مواساة الغير..

تعلَّم العطاء حتّى في ظروفك الخانقة.

تعلَّم كيف تُهدي النّورَ لمن حولك، وإن كانت خفاياك مُتْعَبة..

فثواب العطاء يُخبِئ لك فَرَجًا من حيث لا تحتسب..

وهذا يترك لك عظيم الأثر ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ .

فمن لا أثر له، لا حياة له!

ابتسامتُك في وجهِ عابس أثر

سلامُك في حِلِّك وتَرحالك أثر

تلبيتُك للآخرين أثر

شعورُك بمشاعر الآخرين أثر

مواساتُك لصديقٍ عاجز أثر

كلماتُك الطيّبة أثر

خُلقُك العَذْب أثر

اهتمامُك بالقرآن أثر

برُّ والديك أثر

صَدَقتُك أثر

وتطول القائمة، ولا تنتهي الآثار!

أنت لا تحتاج لِقِمَّةٍ عظيمةٍ تَصْعدها.

أو معجزةٍ تهبِط إليك حتى تَعْبُرَ بأثرِك في حياة الآخرين..

بيدك الكثير لتُقَدِّمه وتغرِسُه في مسيرك وسيرتك!

في أبسط حركاتك وسكناتك وأقوالك يكمن أثرٌ عميق..

لا تغادر هذه الأرض بلا ذكرٍ يَخْلُد مِنْ بعدِك!

اسقِ بذور أعمالك..

تغدو أغصانًا تَدْنو على كُلِّ عابرٍ.

عَلَّهم يقولوا: مرَّ.. وهذا الأثر!

فكـن في الطريـق عفيـفَ الخُطـا شـريفَ الـسَّماعِ كـريمَ النَّظـرْ

وكُـنْ رَجُـلًا إنْ أتـوا بعـدهُ يقولـون مـرَّ هـذا الأثـرْ

فما نحن في الدنيا إلا ضيوف،

وما على الضيف إلا الرحيل!!

«عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مَفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ» [مستدرك الحاكم: 7921]

إلى الله نمضي...

محمود الحسنات

بتاريخ: 19/ 09/ 2022

اقتربت الشمسُ من المغيب، وبدأ الليل يحل في مشهد بديع

نجومٌ تتلألأ كبريقِ اللؤلؤ ولمعانِ الذهب

تَعْكس أضواؤها على بيتٍ بهيج

إذا لمحتَه مِنْ بعيدٍ تسري بداخلك جدائلُ الثَّراء المُمْتدة

ما يسكن ذلك البيت شابٌّ مُدَلَّلٌ مُنَعَّم

تُغْدِق عليه والدته من الحب ألوانًا، ومن الدلال أشكالًا

يعيش بلا شكٍّ أيامًا حلوة، وليالي هنيئة

في تلك الليلة لبس مِنَ الملابس أغلاها ووَضَعَ من العطور أزكاها،

فعبيره الفوّاح يملأ أرجاء المكان

أخذ يَتَجَوَّلُ بأرجاء مكة.....يا للعجب!

ليس لها سيرة ولا حديث إلا ما جاء به محمد بن عبد الله

رجاحة عَقْلِه تسوقه إلى سماعِ المزيد

نور الهدى يَتَغَلْغَل في سويداء القلب

ما زالت الخطا تَقْتَرِب من دار الأرقم

طَرَقَ الباب لا يدري كيف؟!

استَمَعَ إلى آياتٍ من القرآن الحكيم، على لسانِ سَيِّدِ

المرسلين

كادت الغبطة تخلعه من مكانِه، وكأنه من الفرحة الغامرة يطير.

أعلن على الفور إسلامَه، وشهد قلبُه قبل لسانه بشهادةِ الحق المبين

كتم إيمانَه بقلبِه خوفًا من سطوةِ أمه "خُناس بنت مالك" المتيَّمَة بحبِّه وتَدْليله

فقد كانت ذاتَ شخصيةٍ فَذَّةٍ، الكُلُّ يخشى رَهْبَتها وسطوتها.

عاد إلى بيته هائمًا حائرًا بروعةِ ما تَسَلَّل إلى قلبِه

فؤاده به حنينٌ للقيا سيِّد البشر أجمعين.

صارت لياليه قرآن، يَتَلذَّذُ به مع مَنْ سبقوه بالإيمان

كان يذهب خِلسة حتى لا يراه أحد؛ لكن هيهات هيهات!

تأبى عيون قريش وآذانها إلا أن تَتَّبِعَ كل بصمة قدم فوق رمالك يا مكة!

ولقد أبصر به "عثمان بن طلحة" وهو يدخل خِفْيةً إلى دار الأرقم..

يا للهول رآه مرة أخرى!

ولكنه يصلي كصلاة محمد ﷺ

فسابَقَ ريح الصحراء وزوابعها إلى أمه

حيث ألقى عليها النبأ الذي طارَ بصوابها...

عاد الوديع الوسيم إلى بيتِه المملوء بعشيرته وأهله

أمه بكل غضبٍ وسطوة: ما الذي سمعتُه؟

أجابها تاليًا ذلك النور القرآني الذي يَسْلُب القلوبَ والعقولَ

لعَلَّ منهم مَنْ يستبق المجد ويدخل النعيم الأزلي.

لم تحتمل صوته أرادت أن تُسكته بِلَطْمةٍ قاسية على خَدِّه الشريف

لكنها استرخَتْ فهدوؤه وأدبه وابتسامته سهامٌ ألجمتها برهةً

لكن لم تشفع له تلك المحبة المتجذرة في قلبها

فقد تطاول على آلهتها

حبسَتْهُ بمكان بعيد مَهيْنٍ في بيتها العريض منعت عنه الطعام.

أصبح شغلها الشاغل أن تعيده إلى دين آبائها وأجدادها.

ورغم كل هذا يقترب منها قائلًا: أمي! إني لكِ ناصح، وعليكِ شفوق

فاشهدي أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله.

فتجيبه غاضبة: قسمًا بالآلهة، لا أدخل في دينك

وظل رهين مَحبِسه ذاك حتى خرج بعضُ المؤمنين مهاجرين إلى أرض الحبشة

فاحتالَ لنفسه حين سمع النبأ، وغافَل أمه وحُرَّاسَه

ومضى إلى الحبشة مهاجرًا أوَّابًا..

ذلك الشاب اليافع، ذلك الفتى الريّان المدلَّل المنعَّم

هو مصعب الخير؛ نعم مصعب بن عمير رضي الله عنه.

هاجر إلى الحبشة يدعو هناك في سبيل الله

ثم عاد إلى مكة مع الذين عادوا إليها.

خرج يومًا على بعض المسلمين وهم جلوسٌ حول رسول الله ﷺ

فما أن بَصُروا به حتى حَنَوا رؤوسهم

وغضُّوا أبصارهم، وذرَفت بعض عيونهم دمْعًا شجيّا..

يا الله! مصعب يلبس ثوبًا مرقَّعًا!

مصعب جائع!

مصعب عطشان!

وقد كانت ملابسه كحديقةٍ غناء

وعطوره كأزهاير الربيع الفوّاحة.

معادلة فى غاية التعقيد

معادلة فى غاية الذهول.

تَرَكَ الدنيا ونعيمَها وغناها، وتمسَّك بالفقر والجوع

المتوَّج بإيمانٍ راسخ كرسوخ الجبال.

أما أمُّه فمُتَمَسِّكة بكُلِّ جبروتها وقوتها وسطوتها

بدينٍ باطل تَعْبد فيه أصنامًا لا تسمع ولا ترى.

آمن مَنْ آمن مِنَ الأنصار؛ لكنهم فى حاجة إلى من يقرئهم القرآن، ويُعَلِّمهم أمور دينهم

فاختارَ الحبيب ﷺ مصعبًا؛ ليكون أوَّلَ سفيرٍ له خارج مكة، وأوَّلَ مهاجر إلى المدينةِ المنورة.

فَتَرَك مصعب مكة للمرة الثانية طاعةً لله ولرسوله

وحمل أمانة الدعوة إلى الله، مستعينًا بما أنعم الله عليه من عقلٍ راجح، وخلق كريم، وأُعْجِب أهل المدينة بزُهْدِه وإخلاصه فدخلوا في دين الله، وكان مصعب يدعو الناسَ إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، فأسلم على يديه سادة أهل المدينة؛ مثل: أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ.

فقد أُلْقِيَ بين يديه مصير الإسلام في المدينة
التي ستكون دار الهجرة، ومنطلق الدعوة والدعاة،
والمبشرين والغزاة، بعد حينٍ من الزمان قريب..
وقد كان خير مَن اختار سيد الأنام ﷺ (مصعب الخير)
مستعينًا بما أنعم الله عليه من رجاحةِ العقل وكريم الخُلُق،
فَدَخَلَ أهل المدينة في دين الله أفواجًا..
ودارت أيامٌ وسنون، وهاجَرَ النبي الكريم، وفَرِحْنا بنصرِ بدر أجمعين.
وتجيء غزوة أحد
ويختار الرسول مصعبًا ليحمل اللواء، ونَشَبَت معركةٌ رهيبة واحْتَدَم القتال
اشتبك الجمعان، وكان النَّصر أوّل الأمر للمسلمين
ولكن سرعان ما تحوَّل النصر إلى هزيمة
لمّا خالف الرماة أمْر رسول الله ﷺ.
وبدأت صفوف المسلمين تَتَمَزَّق
وأخذت عيون اللئام تَتَجَمْهر حول الرسول الصادق الأمين.
وكانت عيونُ مصعب تَلْمَح ذلك مِنْ بعيد؛ فقد أدرك الخطر

فأخَذَ يدافِع عن الرسول ﷺ.

فضُرِبَتْ يده اليمنى فقُطعت

ومصعبٌ يقول:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ .

فضُرِبَتْ يدُه اليسرى فقُطِعتْ، فضمَّ مصعبٌ اللواء إلى صدرِه بعضديه،

وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾

فضربه أعداء الله ضربة ثالثة

وقع مصعب.. وسقط اللواء..!

وصار شهيدًا فى سبيل الله.

انتهت المعركة وبدأت الدموع تسيل

وصار الكل يتفقد الآخر

أين مصعب؟

مصعب شهيدٌ، فقد سالت عليه الدموع غزيرة وفيرة

ولم يجدوا شيئًا يكفنونه فيه إلا ثوبه القصير،

إذا غطوا به رأسه انكشفَت رِجلاه،

وإذا وضعوه على رجليه ظهرت رأسه،

فقال النبي ﷺ:

«غَطُّوا رأسَه، واجْعَلوا على رِجْلَيْه مِنَ الإذْخِر» (نباتٌ له رائحةٌ طيبة) [متفقٌ عليه]

ومَضى مصعب إلى رحاب الله سبحانه.

أجل.. وَقَفَ الرسول ﷺ عند مصعب بن عمير، وقال وعيناه تلفانه

بضيائهما وحنانهما ووفائهما:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ .

وهَتَفَ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أرضِ المعركة

بكُلِّ مَنْ عليها مِنْ رفاقِ مصعب وقال:

"إنَّ رسول الله يشْهَدُ أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة".

ثم أقبل على أصحابه الأحياء حوله وقال:

"أيها الناس زوروهم، وأتوهم، وسلِّموا عليهم، فوالذي نَفْسي بيده، لا يُسَلِّم عليهم مسلم إلى يوم القيامة، إلا ردُّوا عليه".

تعالوا بنا لنرى كيف مضى هؤلاء إلى ربهم؟ وما هذه الأسرار التي سكنت قلوبهم؟ وكيف صَدَقُوا الله فَصَدَقَهم؟!

تعالوا بنا لنرتحل في هذه المعاني لتكونَ نِبْراسًا لنا في طريقِنا إلى الله لتُعيننا على الوصول.

تعالوا بنا ليكون كلُّ واحدٍ منا مُصعبًا في حياته..

مصُعبًا في خوفه من الله، في زهده وشجاعته..

في تَعَلُّقِه بأحبالِ السماء، في قوَّة روحه وإيمانه..

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾

إن الخوفَ من اللهِ تعالى، ووَضْعُ خشيته بين عينيك تجْعَلُك آمنًا مطمئنًا في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

إنك تخاف لتأمن، وتخشى لتطمئن

فإنَّ الخوف مِنَ الرحمن، سبيلُه جنتان

وروْحٌ وريحان، ورضًا واطمئنان.

وتزخر سِيرُ العابرين بخوفٍ يهزُّ القلوب، وخشيةٍ من علامِ الغيوب، دَفَعَتْهم للتَّقَرُّب إلى الله بدموعِ التهجدِ وطول القيامِ، وساقَتْهم نحو ربهم بالصدق والصيام، فما كان خوفُهم من الله إلا طريقًا آمنًا لدارِ السلام.

يقول ابن القيم الجوزية: "الخَوْفُ سِراجٌ في القَلْبِ، بِهِ يُبْصَرُ ما فِيهِ مِنَ الخَيْرِ والشَّرِّ، وكُلُّ أحَدٍ إذا خِفْتَهُ هَرَبْتَ مِنهُ؛ إلّا اللهَ ﷻ، فَإنَّكَ إذْ خِفتَهُ هَرَبْتَ إلَيْهِ".

فالخوفُ من الله يدفعك لتهرب نحو بابه،

ويدعوك إلى التعبدِ في محرابه،

وهو مقياسُ الخيرِ والشرِ في الفؤاد،

وإنه لنعمَ العبادة ونعمَ الزاد، الذي يؤهل روحَك لتكون من خيرةِ العباد.

كما أنَّ الخوفَ من الله يَجْعَل الإنسانَ حَذِرًا من الوقوع في الهفوات، والولوج في الشهوات، ويضعُ في القلبِ خَفَقانًا يقودك نحو الصلاح، ويصنع في الروحِ جمالًا يسيرُ بِكَ نحو الفلاح.

يقول إبراهيم بن سفيان: "إذا سَكَنَ الخوفُ القلوبَ أحرقَ مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها".

فإذا شعرتَ بالخوف من الله العظيم، أدركَكَ بكَرَمه وأمانه فهو الكريم، وإذا لازَم الخوفُ من الله وجدانَك فقد عَرَفْتَ الطريق، وأصبحتَ بقلبٍ رقيق، ترحلُ منه الدنيا والأحزان، ويسكنُ فيه الشوق للجِنان.

يقول ذو النون: "الناس على الطريق ما لم يَزُل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق.

فالقلب الخالي من الخوف يملؤه الخراب والعَفَن،
وتُغرِقُه الشهواتُ والفتن، ويعيشُ في الدنيا في جوفِ المِحن،
فلا يرتاحُ ولا يطمئنّ، ولا يشتاقُ ولا يَحنّ بل يبقى حائرًا من الأوجاعِ يَئِنّ،
فالروحُ أمانها الخوف وخشيةُ القدّوس، وهو تطهيرٌ للنفوس،
يُنيرُ الوجهَ العَبوس، يقودُك إلى الهدى والأمل،
ويُزيحُ من قلبك الكللَ والملل.
يقول الفضيلُ بن عياض: "من خاف الله دلّه الخوفُ على كلِ خير".
وكلُّ قلبٍ ليس فيه خوفُ الله، فهو قلب مليءٌ بالخراب.
كما أنّ الخوفَ في الدنيا الفانية، يقودُك حتمًا إلى جنةٍ قطوفها دانية، ويجعلُ نفسَك مرتاحةً راضية، ووجناتَك مُشرقةً زاهية.
فالخوفُ من الله وحده هو الأمانُ الوحيد،
وهو السبيلُ الرشيد، يُنقذك من عذابٍ شديد.

فقد قيل ليحيى بن معاذ: "من آمَنُ الخلق غدًا؟"

فقال: "أشدهم خوفًا اليوم".

ونحنُ بطبيعة الحال نعمل للغد،

فاليوم فاني وغدًا آتي،

فتزوّد من الخوفِ والخشية

حتى تصبحَ روحُك بالإيمانِ نَديّة،

ونفسُك بالعزمِ فَتِيّة.

يقول الحسن: "إنك إن تخالط أقوامًا يخوفونك حتى تدرك الأمن،

خيرٌ لك من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى تدرك الخوف.

كما أنّ الخوفَ من الله تعالى يُزيلُ من قلبِك الخوف ممن سواه،

ويجعلُ أكثرَ ما يهمُّك هو رضاه، وتسعى مشتاقًا توّاقًا ليومِ تلقاه.

قال الحافظ ابن الجوزي: "مَن خاف الله خافه كلُّ شيء".

فعُد إلى الله بقلبٍ خاشع

وادعه ليلًا بطرفٍ دامع

يتولاك ربُّك بعفوٍ واسع.

على مدى ثلاثة قرون من الحكمِ الإسلامي لم يكن هناك في الدولة الإسلامية إلا سِتُّ سرقات؛ أي: بمعدل سرقتين كل مائة عام.

أمام هذه الإحصائية العظيمة نرجع للوراء قليلًا

وإلى أعظم زمن مَرَّ على التاريخ، وهو زمن المصطفى ﷺ

يتجَرَّأ الصحابي ماعز بن مالك على ارتكابِ جريمة الزنا

رغم أنه يرى النبي ﷺ

ورغْم أنه يعلم أنه قد ينزلُ فيه قرآن يُتلى إلى يوم القيامة

لكن هذا كله لم يمنعه من أن يقعَ في الزنا؛ بل ويذهب بعد ذلك ليَعْتَرِفَ أمام النبي ﷺ أنه قد زنى.

قامَ ماعزٌ بفتحِ ملف قضيته مِنْ جديد مع أن الله أغلقها بستره.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهُوَ الحَيِيُّ فليسَ يَفْضَحُ عبدَه عندَ التَّجاهُرِ مِنْه بالعصيانِ

لكنَّه يُلقي عليه سِتْرَهُ فهو السَّتِيْرُ وصاحبُ الغُفران

يذهب ماعزٌ إلى النبيِّ ﷺ بِقَدَمَيْه

وهو يقول: يا رسول الله! طَهِّرني

والنبيُّ ﷺ يقول: ويحك ارجع واستغفر وتب إلى الله،

فرجع ماعز غير بعيد، ثم جاء مرة ثانية إلى النبيِّ ﷺ وقال: يا رسول الله طهرني!

لا تتعجب!

بعد أن ردَّه النبيُّ ﷺ! يعود

لماذا يعود؟

وما هو السر؟ رغم أن الله قد ستره، ورغم أنَّ النبي ﷺ قال له: «ارجع واستغفر الله وتُبْ إليه»

فَرَجَعَ ماعزٌ غيرَ بعيد، ثم جاء إلى المصطفى ﷺ للمرَّةِ الثالثة فقال: يا رسول الله! طهرني.

قال المصطفى ﷺ: **«ويحك ارجعْ واستغفرِ الله وتُبْ إليه»**

النبي ما زال يفتح له طريقًا للرجوعِ إلى الله

ما زال يُعَلِّمه أنه لن يجد أحنَّ ولا أرحمَ ولا ألطفَ من الله!

يرجع ماعزٌ إلى النبيِّ ﷺ للمرة الرابعة

فيقول: يا رسول الله! طهرني

فقال له الحبيب ﷺ:

«مِمَّ أُطهِّرُكَ يا ماعز؟!»

قال: من الزنا.

فسأل النبيُّ ﷺ أصحاب ماعز: أَبِهِ جنون؟

قالوا: يا رسول الله! ليس مجنونًا.

تَخَيّل معي أنَّ النبي ﷺ رغم إقرار ماعز بالزنا؛ إلا أنه يسأل أصحابه عن عقلِه، فلو كان النبي ﷺ يهوى سَفْك الدماء كما يُصَوِّر البعض لأقام عليه الحد في وقتها؛ ولكنَّ النبي ﷺ ردَّه أربع مرات؛ ليعلمنا درسًا ستعرفه أخي القارئ لاحقًا.

فقال النبي ﷺ لأصحاب ماعز: «**هل شرب الخمر فلعبت في رأسه؟**»

فقام أحد الصحابة ليشم رائحة فمه

فقال: لا يا رسول الله! لم يشرب خمرًا.

فأمر النبي ﷺ به فرُجِم

قال النبي ﷺ بعدها:

"لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم".

ما زلنا نبحث عن السِّرِّ في ذهاب ماعز رضي الله عنه للنبيِّ ﷺ لإقامةِ الحد عليه؟ ولماذا لم يقم النبيُّ بإقامةِ الحد عليه مباشرة وأرجعه أكثر مِنْ مرة ليتوب؟

ماعزٌ رجلٌ قد تأخذه شجاعته لذلك، فماذا عن امرأة وهي المرأة الغامدية رضي الله عنها والتي كذلك قد زَنَت في زمنِ النبي ﷺ

فجاءت للنبيِّ ﷺ وقالت: طهرني

فقال لها: "ويحكِ! ارجعي واستغفري الله وتوبي إليه".

فقالت: أتريد أن تردني كما رَدَدت ماعز بن مالك؟!

تخيَّل معي أن الذي يَتكَلَّم بهذه الكلمات هي امرأة.

ثم تقول للنبيِّ ﷺ: فوالله إني لحُبلى حملًا من الزنا!

فهل رَجَمَها النبيُّ ﷺ؟ لا!

بل قال لها: "اذهبي حتى تضعي ما في بطنك"

فذهبت فولدت ثم عادت وهي تقول: يا رسول الله! طهرني.

فهل رَجَمَها النبيُّ ﷺ: لا!

بل قال لها: انطلقي فأرضعيه حتى تفطميه"

فذهبت وأرضعته عامين كاملين

ثم عادت والولد يحمل كُسَرة خُبْزٍ بيده!

لماذا عادت؟!

وما هذا الإصرار العجيب على طلب الرجم وإقامة الحد؟!

لماذا لم تجلس لتربية ولدها؟!

لماذا عادت بعد عامين كاملين؟!

فقالت: يا رسول الله! هذا ولدي قد فَطَمتُه فطهرني.

فأمر النبي بها فرُجمت، وكان من بين الراجمين خالدُ بن الوليد رضي الله عنه، فجاء الدمُ على وجهه فسبَّها

فقال له النبيُّ ﷺ:

«مهلًا يا خالد! والله لقد تابت توبة لو قُسِّمتْ على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم» [صحيح مسلم: **1695**]

مررتُ قبل سنوات لألقيَ محاضرةً في أحد المساجد

فَشَدَّتني جدارية فوق بئر ماء وقد كُتب عليها

(هذا البئر هو لروح المرأة الغامدية رضي الله عنها)

رَجَمَها النبي ﷺ قبل **1400** عام

واليوم تُحْفَر لروحِها الآبار!

من هنا نستطيع أن نكتشف ذلك السر الذي دَفَعَ ماعزًا والغامدية؛ ليذهبا للنبي ﷺ لطلب إقامة الحد!

من هنا نكتشف لماذا رَدَّهما النبي مراتٍ ومرات!

من هنا نكتشف لماذا كانت عدد الحدود والعقوبات في زمن النبي ﷺ تُعدُّ على أصابع اليد، ولم تكن هناك أجهزة رقابة للمجتمع!

لقد ربى النبيُّ ﷺ أصحابه على حَدٍّ عظيم هو أعظمُ مِن كلِّ الحدود، الحدُّ الذي إذا تَغَلْغَل في المجتمع لم يحتج هذا المجتمع للمحاكم ولا إلى قضايا القتل والزنا والسرقة والثأر، ولَمَا بَنى هذا المجتمع سجنًا للمجرمين، ودارًا للمسنِّين!

هذا الحد هو الذي دفع ماعزًا لطلب الحد رَغْم أن الله سَتره، وكذا المرأة الغامدية،

هذا الحد الذي سار به أصحاب رسول الله ﷺ وأبكاهم ليل نهار!

إنه حدُّ الخوف من الله

حينما أثنى الله على الرجال لم يُثْنِ عليهم لشهاداتهم ولا أموالهم فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: 37].

قال عنهم في مطلع الآية: ﴿رِجَالٌ﴾

ثم في وسط الآية: ﴿يَخَافُونَ﴾

فالخوف من الله هو الذي صَيَّرهم رجالًا!

رجالٌ لا كالرجال!

رجالٌ مع الله ولله وبالله وإلى الله.

رجالٌ ما شغلتهم الحياة عن الله.

كان ابن مسعود رضي الله عنه جالسًا، فسمع أحد أصحابه يقول: ما أودُّ أن أكون من أصحاب اليمين، إنما أود أن أكون من المقربين؛ لأنهم أعلى درجةً من أصحاب اليمين فقال ابن مسعود رضي الله عنه: أمَا أنَّ هاهنا رجلًا يَود أنه إذا مات لم يُبْعَثْ - يعني: نفسه- أودُّ أنني إذا مِتُّ لا أُبْعَث، ودِدتُ أنني شجرةٌ

تَعْضُد شجرةً ثم تزول وتَهلِكُ كما تَهْلِكُ الأشجار، ولا أبعث عند الله ﷻ يوم القيامة، ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ .

إنه يوم شديد منع النومَ الصحابةُ الكرام والسلف الصالح

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾

خوفًا من ذلك اليوم ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ .

يقول بعضهم: "ما رأيت مثل الحسن -أي: البصري - وعمر بن عبد العزيز! كأن النار لم تُخلَق إلا لهما!".

وبكى بعضهم قبل الوفاة بكاءً شديدًا فبكت أمه، قال: ولِمَ تبكين؟

قالت: لبكائك يا بني! قال: أما إني أبكي لخوفِ المطلع عند الله جل وعلا في ذلك اليوم.

إنه الخوفً من مَلِكِ الملوك ﷻ والرهبةُ من لقائه..

قال بعض السلف: "أصلُ كلِّ خيرٍ الخوفُ من الله".

والخوف من الله جل جلاله من لوازم الإيمان

فمن لم يَخَفِ اللهَ تعالى فليس بمؤمنٍ، قال ﷻ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: 175].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الخوفُ علامةُ صحة الإيمان، وترحُّله من القلب علامة ترحُّل الإيمان منه.

وهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد بُشِّر بالجنة

يقول عند موته لابنِه عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

"ضع خَدّ أبيك على التراب؛ لعَلَّ الله أن يرحَمَ أباك،

ليت أمَّ عمر لم تَلِدْ عمر"

يبكي ويخاف وهو المبشر بالجنة!

ونحن نضحك ملء أفواهنا كأننا ضَمَنّا جنةً عرضها السماوات والأرض.

يقول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَو أَنّا إِذا مِتنا تُرِكنا لَكانَ المَوتُ راحَةَ كُلِّ حَيِّ

وَلَكِنّا إِذا مِتنا بُعِثنا وَنُسأَلُ بَعدَ ذا عَن كُلِ شَيِّ

لو خاف التاجر من ربه لما غَشَّ في تجارته!

ولو خاف الحاكم من ربه لما ظَلَمَ رعيَّته!

ولو خاف السارق من ربه لما تجرأ على حقوق الناس!

ولو خاف الزاني من ربه لما تجرأ على الحرام!

فالخوف من الله مانعٌ للجريمة؛ بل كان في عهد النبي ﷺ يقوم مقام الأمن الداخلي.

يقول تعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: 46].

يقول الحبيب ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ». [سنن الترمذي: 2450]

أبو هريرة رضي الله عنه وهو أكثر مَن روى الحديث عن النبي ﷺ لما جاءه الموتُ بكى.

قالوا له: أتبكي على الدنيا؟!

قال: والله دنياكم هذه كلُّها لا تبكيني!

نعم هذه الدنيا لا تُبْكِي أبا هريرة؛ لأنَّ المؤمنَ الحقيقي لا يَبْكي على دنياه؛ بل لضياع الحسنات والختمات والخيرات والصلوات.

على ماذا بكى أبو هريرة رضي الله عنه؟

قال: (إنما أبكي على قلة الزاد، وطول السفر، وضعف اليقين، وخوف المنقلب، والسقوط من أعلى الصراط في النار!)

يا ترى على ماذا نحن نبكي ونخاف؟!

وهل نربي أولادنا على الخوف من مراقبة الناس؟

أم على الخوف من مراقبة الله في السر والعلن؟!

بعضنا يقول لولده: لا تَسُبَّ ولا تَغْتَبْ لأنَّ الجُدران لها آذان

ولعل أحدًا من الناس يسمعك؛ ولكن القليل مَن يربي ابنه على أن الله يرى ويسمع، ويزرع في ولده مقام الخوف من الله لا سواه!

قال الله: «**وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ؛ إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أخفته يوم القيامة**» [صحيح ابن حبان: **640**].

هنيئًا لك تلك الليالي الباردة، والتي كُنْت تَقْوى بها على فراشِكَ ثم تنهض لقيام الليل وصلاة الفجر.

خوفُك من الله ليلتها كخوف أحد الصالحين

حينما كان يقوم من الليل فينظر إلى فراشه فيقول:

والله يا فراش! إن النوم عليك لذيذ؛

لكن شوقي إلى لقاء الله قد أطارَ لذَّتَك من قلبي.

هنيئًا لك وأنت تَرْقُب سكون الليل ونسيم السَّحَر لقيام الليل.

خوفُك يومها كخوف شدادِ بن أوس رضي الله عنه حينما كان يأوي إلى فراشه فيتقلبُ كأنه حَبَّةٌ على مِقْلى، فيقول: اللهم إن جهنَّم لا تريدني أن أنام!

كان عامر بن عبد الله يقول: (ما رأيت مثلَ الجنة نام طالبُها، وما رأيت مثلَ النار نام هاربها).

يبكي مصلاهم على دمعاتهم في كل حينٍ هُم بهِ يستغفروا

وبكَتْ مواطِنُ خوفِهم ورجائهم يوم اللَّظى في روحهم تتسعَّرُ

هنيئًا لك تلك الليالي التي كان يُعرض عليك الحرام فيها فتُجاهِد النفس بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: 14].

هنيئا لك وأنت توضَع في يدك الرشوةُ فترفضها لأن الله يرى.

ويؤذيك أحدهم فتعفوا؛ لأن الله يرى

وتغض بصرك عن الحرام؛ لأن الله يرى

وترضى بالقليل من المال الحلال؛ لأن الله يرى.

إِذا ما خَلَوتَ الدَهرَ يَومًا فَلا تَقُلْ خَلَوتُ وَلَكِن قُلْ عَلَيَّ رَقيبُ

وَلا تَحسَبَنَّ اللَهَ يُغفِلُ ما مَضى وَلا أَنَّ ما يَخفى عَلَيهِ يَغيبُ

هل تذكر تلك الليلة التي نمت فيها باكيًا خوفًا من الله؟

أُبشِّرُك أن تِلْك الدموع لم تُذرف هباءً

قال الحبيب ﷺ: «**لا يَلِج النارَ رَجلٌ بَكى مِنْ خَشْيَةِ الله**» [سنن النسائي: 3108]

كلُّ خوفٍ يُسَمَّى خوفًا؛ إلا الخوف من الله فهو الأمان،

فبه يرجِعُ العاصي لله ويتوب،

ويَبَرُّ العاقُّ والده،

ويَصِل القاطع رَحِمَه،

ويُحْسنُ آكل مال اليتيم والمسكين إليهما،

ويحسنُ المسيءُ إلى جيرانه،

ويعود الظالم إلى رُشْدِه.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: من خاف الله خافه كلُّ شيء.

فكلُّ أحدٍ إذا خِفْتَه هربت منه؛ إلا الله فإنَّك إذا خفتَه هربت إليه؛ فالخائف هاربٌ من ربه إلى ربه

فهذه الحياة مليئة بالأمواج

ولن يعيدك إلى الساحل إلا الخوف من الله.

يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن المؤمِنَ يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنفه فقال به هَكذا.

وحتى مَنْ لم يَعْص الله طرفةَ عين يخاف من الله

فتأمَّل معي حينما وَصَفَ اللهُ الملائكةَ:

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: 50].

لن يُبَدّل حالنا ولن تتغير أوضاعنا

إلا إذا رجعنا إلى الله خائفين وَجِلين منيبين...

وكيف نخاف من الله؟

كيف نسلك طريق الخائفين؟

كيف نعيش مع الله بالوجل منه، والحذر من عذابه؟

إن قلوبَنا أصْبَحَت مَيِّتةً لا تُحِّركها قوارع القرآن وزواجره

وما ذاك إلا للرانِ الذي غَطَّى قلوبَنا فماتت قلوبُنا إلا من رَحِمَ الله.

إننا لو نظرنا كيف عاش السَّلف الصالح مع الله بالخوفِ مِنْ عذابه والحذر مِنْ نقمته لرأينا أمرًا مهولًا وشيئًا عجبًا لا يخطر لنا على بال!

مَرَّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه على طيرٍ قد وَقَعَ على شجرة فقال: طُوبى لك يا طيرُ! تطير فتَقَع على الشجر، ثم تأكل من الثمر، ثم تطير ليس عليك حسابٌ ولا عذاب!

يا ليتني كُنت مثلك! والله لوددتُ أني كنتُ شجرةً إلى جانب الطريق، فمَرَّ عليَّ بعيرٌ فأخذني فأدخلني فاه، فلاكني ثم ازدردني، ثم أخرجني بَعْرًا، ولم أكن بشرًا!

وقال عمر رضي الله عنه: يا ليتني كُنتُ كبشَ أهلي سمَّنوني ما بدا لهم، حتى إذا كنت كأسْمَنِ ما يكون، زارهم بعض مَنْ يُحبِّون، فذبحوني لهم، فجعلوا بعضي شواء وبعضي قديدًا، ثم أكلوني ولم أكن بشرًا!

هذا حالُ الصدِّيق أبي بكر والفاروقِ عمر رضي الله عنهما خير هذه الأمة بَعْد رسول الله ﷺ، فكيف بحالنا نحن؟!

ومن أقوالِ الصديق رضي الله عنه قوله: وددت أني شعرةٌ في جنبِ عبد مؤمن.

وذُكِرَ عنه -أيضا- أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد.

وكان يبكي كثيرًا، ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا!

وكان إذا قامَ يُصَلِّي كأنه عودٌ من خشيةِ الله عز وجل وخوفِه والرهبةِ منه!

ولما احتضر قال لابنته عائشةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنهما:

يا بُنَيَّة! إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة، وهذه الحِلاب، وهذا العبد، فأسرعي بهم إلى ابن الخطاب.

وقال: والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد.

يا للعجب!

يخاف مِنَ السؤال على هذه التركة التي لا تُذْكَر، فكيفَ بمن يأكلُ الملايين مِنْ أموالِ المسلمين دون أدنى خوف من الله تعالى؟!

كيف بمَنْ لا يَتَوَرَّع عن الحرام؟!

كيف بمن يأكلُ أموالَ الناس بالباطل ولا يبالي؟!

ألا يخشى يومًا تتَقَلَّب فيه القلوب والأبصار؟!

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وَقَفَ على القبر يَبْكِي حتى تَخضَلَّ لحيته، وقال: لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يُؤْمَر بي لاخْتَرتُ أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبكاؤه وخوفه، وكان يَشْتَدُّ خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: فأمّا طولُ الأمل فيُنسي الآخرة، وأما اتباعُ الهوى فيصُدُّ عن الحق، ألا وإنَّ

الدنيا قد ولَّت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكُلِّ واحدةٍ بَنُون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناءِ الدنيا، فإنَّ اليوم عملٌ ولا حساب، وغدًا حسابٌ ولا عمل.

ومِنْ أجْمل ما كان يردده عليٌّ رضي الله عنه:

وَلَـــو أَنَّـــا إِذا مِتنـــا تُرِكنـــا لَكـانَ المَـوتُ راحَـةَ كُـلِّ حَـيِّ

وَلَكِنّـــا إِذا مِتنـــا بُعِثنـــا وَنُـسأَلُ بَعـدَ ذا عَـن كُـلِ شَـيِّ

رُوِيَ عن أحد السلف أنه قال:

دخلت سوق النخّاسين، فرأيتُ جاريةً ينادى عليها بالبراءة من العيوب، فاشتَرَيْتُها بعشرة دنانير

فلما انصرفتُ بها -أي: إلى المنزل- عرضْتُ عليها الطعام

فقالت لي: إني صائمة!

قال: فخرجت، فلمَّا كان العشاء أتيتها بطعام فأكلت منه قليلًا

ثم صلَّيْنا العشاء، فجاءت إليّ و قالت: يا مولاي!...بقيت لك خدمة؟

قلت: لا!

قالت: "دعني إذًا مع مولاي الأكبر".

قلت: لك ذلك فانصرفَتْ إلى غرفةٍ تصلي فيها

ورقدتُ أنا، فلما مضى من الليل الثلث ضربت الباب عليّ..

فقلت لها: ماذا تريدين؟

قالت: يا مولاي! أما لك حَظٌّ من الليل؟

قلت: لا! فذهَبَت.

فلمّا مضى النصف منه ضربت علي الباب وقالت: يا مولاي! قام المتهجدون إلى وِرْدِهم، وشمَّر الصالحون إلى حظِّهم!

قلت: يا جارية! أنا بالليل خشبة (أي: جثة هامدة) و بالنهار جلبة (كثير السعي)!

فلما بَقِيَ من الليل الثلث الأخير ضَرَبَت عليَّ الباب ضربًا عنيفًا و قالت: أما دعاك الشوق إلى مناجاة الملك، قَدِّمْ لنفسك وخذ مكانًا فقد سبقك الخُدّام!

قال السري: فهاجَ مني كلامُها وقمتُ فأسبغتُ الوضوء وركعت ركعات، ثم تحسَّسْتُ هذه الجارية في ظلمةِ الليل فوجدتها ساجدة وهي تقول: "إلهي بحبك لي إلا غفرتَ لي"

فقلت لها: يا جارية! ومن أين علمت أنه يحبك؟

قالت: لولا محبته ما أقامني وأنامك

فقلت: اذهبي فأنت حرة لوجه الله العظيم!

فدعت ثم خرجت وهي تقول: "هذا العِتْقُ الأصغر بَقِيَ العتق الأكبر" (أي: من النار)

أيُّ قلوبٍ هذه في خوفِها من الله تعالى؟!

وماذا فَعَلَت بنا الدنيا؟!

وكيف صارت قلوبنا كالحجارة أو أشدّ قسوة؟!

وما الذي أخَّرَنا عن اللَّحاقِ بهم؟

وهل حصل لنا الأمن من النار حتى نطمئن..؟

كم بَكينا مِنْ آياتِ القرآن؟

كم تدبرنا مواعِظَه؟

ألم يأنِ لقلوبنا أن تخاف زواجِرَه؟

وهذا عطاء السليمي رَحِمَهُ اللَّهُ "كان إذا فرغ من وضوئه انتفض وارتعد وبكى بكاءً شديدًا، فيقال له في ذلك، فيقول: إني أريد أن أُقْدِمَ على أمر عظيم أريد أنْ أقومَ بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ".

إن علامةَ خوفِكَ مِنَ الله أن تسارِع إلى الطاعات، وأن تَجْتَنِبَ السيئات، وأن تسابِقَ لبلوغ منزلةٍ في جَنَّةٍ عرضها الأرض والسماوات!

ومَنْ خافَ الله حق الخوف فرج الله عنه، وأخرَجه من

الضائقات، وجعل له حلًّا في كل مشكلة، وأمْنًا في كل مخافة، ونجّاه من الكروب، فالثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، ولم يستطيعوا الخروج منه، قال بعضهم لبعض: لن يُنَجِّيكم إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فأحدهم ذَكَر أنه راوَدَ ابنة عمٍّ له عن نَفْسِها بمائة دينار فأبَتْ، ثم إنها أَلَمَّت مُلِمَّةٌ، فجاءت إليه ومَكَّنَتْه من نفسها، فلما قَعَدَ بين رجليها قالت له: اتق الله ولا تَفُضَّ الخاتَم إلا بحَقِّه، قال: فقمتُ عنها، وتركتُ لها المائة دينار، فإن كنتَ تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنَّا، ففرَّج الله عنهم فخرَجوا. [متفق عليه]

فانظر كيف نجَّاه خوفه من الله..

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ: يا رسول الله! قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60]، أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: (لا يا بنت الصديق! ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق، ويخاف ألا يُتَقبَّل منه)؛ [سنن الترمذي: 3175].

قال الحسن رحمه الله: عَمِلُوا واللهِ بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُرَدَّ عليهم.

فهذا هو حال الصحابة رضي الله عنهم، لهم اجتهادٌ في العبادة والطاعة

والقُربِ من الله تعالى والإنابةِ إليه والحذرِ من الذنوب، ومع ذلك يخافون منه أشدَّ الخوف، ولا تغرُّهم تِلْك الطاعات والعبادات والقُرَب، أمّا نحن المُقَصِّرون فقد جمعنا بين التقصير وعدم الخوف.

يقول عروة بن الزبير رضي الله عنه: كنت أبِيتُ، ثم إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة فأُسَلِّم عليها -أوّلُ بيت في الصباح أسلم عليه بيت عائشة - يقول: فَقَدِمْتُ عليها يومًا فإذا هي قائمة تصلي وتبكي -لعله قبل الفجر، ولعَلَّه في الضحى، ولعَلَّه في وقتٍ من الأوقات- وتقرأ قول الله جل وعلا: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: 27] فنظرت إليها تبكي، فأعادت الآية مرة أخرى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ فانتظرت فأعادت الآية مرةً ثالثة ورابعة وخامسة وأخذت تعيدها وتبكي، فقلت: أذهب لأقضيَ حاجة لي فأرجع، قال: فذهبت، ثم رجعت بعد زمن، فنَظَرتُ إليها قائمةً تُردِّد نفس الآية وتبكي، رضي الله عنها وأرضاها.

إنه الخوف من لقاءِ الله وجلال الرهبة منه، فأين نساء المسلمين اليوم من الخوف من الله تعالى، وقرع القلب بقوارع

القرآن والعيش مع آياته وكأنها تخاطب الروح والمشاعر؟!

وتعال حتى نقف على خوف الصحابي ثابت بن قيس ﷺ من أن يكون قد حَبِطَ عمله بِسَبَبِ رفعه صوته عند النبيِّ ﷺ:

عن أنس بن مالك ﷺ، قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: 2] إلى قوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: 2]، وكان ثابت بن قيس بن الشَّماس رفيع الصوت، فقال: أنا الذي كنتُ أرفع صوتي على رسول الله ﷺ حبط عملي، أنا من أهل النار، وجلس في بيته حزينًا، فتفقده رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه، فقالوا له: تفقَّدَك رسول الله ﷺ ما لك؟ فقال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي، وأجهر له بالقول، حبط عملي، وأنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال: «**لا؛ بل هو من أهل الجنة**» [متفق عليه].

وفي هذا دليلٌ على أنَّ الخوف قد تكون عاقبتُه خيرًا، وبه يبلغ العبدُ رضا الله والجنة، فهذا الرجلُ خاف أن يكون من أهل النار؛ لأنه كان جهوريَّ الصوت، وكان أحدَ خُطباء النبي ﷺ، وكان فصيحًا بليغًا يملك نواصي البيان وزِمام بلاغته ﷺ، فلمَّا نزلت هذه الآية فَلِشِدَّةِ خوفه من الله ﷻ احتبس في بيته يبكي، حتى كان

لا يحضر مجالس النبي ﷺ، ففقده النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وسألَ عنه، فقال الرجل: أنا أُخبرك خبره، فذهب إليه، فقال: ما الذي حبسك؟ قال: (شرٌّ) يعني: بحسب ظنه، لا بحسب الواقع، وهو أنه كان يرفعُ صوتَه عند النبي ﷺ، فخاف أن يَحْبَط عملُه وهو لا يَشْعُر، هكذا قال الرجل، فأخبر الرجلُ النبيَّ ﷺ بذلك، ولكنه بشَّرهُ هذه البشارة العظيمة، قال له: «**إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة**» [صحيح البخاري: **4846**]، وقال في روايةٍ أُخرى: «**أما ترضى أن تعيش حميدًا، وتُقتل شهيدًا، وتدخل الجنة**» [الأوسط للطبراني: **42**]، وقُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهيدًا في غزوة اليمامة.

إن الخوفَ منه في الغيب أن تعلم أنه معك ويراك عندما تخلو بنفسك، وأنت على شاشة جوالك فتَدْخُل مِنْ موقعٍ إلى موقع، ومِنْ صفحة إلى صفحة، ليس عليك من رقيب إلا الله!

اللهم اجعلنا ممن يخافك ويخشاك في الغيب والشهادة، والسر والعلانية، والخلوة والجَلوة!

واجعلنا يا حيُّ يا قيوم! ممن قلتَ فيهم: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: **40و41**]

وممن قلت فيهم: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: **46**].

قال الحبيب ﷺ: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ؛ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ» [سنن الترمذي: 1639].

ما هذه العلاقة بين تِلْكَ العين التي تبكي من خشية الله

وبين تلك العين التي تحرس في سبيل الله؟ وبين قوله تعالى:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: 37].

وبين قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]

الرجال الذين لا تلهيهم التجارة والبيع عن ذكرِ الله ويخافون يوم القيامة هم أولئك الرجال الذين صَدقُوا ما عاهدوا الله عليه، فجاهدوا في سبيل الله، ومنهم من اسْتُشْهِدَ وقضى نحبه.

فالخوف الذي لا جبن فيه هو الخوف من الله!

والخوف الذي يفتح لصاحبه باب الشجاعة هو الخوف من الله.

هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان له خطّان أسودان من كثرةِ البكاء خوفًا من الله، ويسمع يومًا قارئًا وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ [الطور: 7] فيسقط مغشيًا عليه ويمرض أيامًا يزوره الناس.

وهو عمر بن الخطاب الذي حطَّم إمبراطورية كِسْرى وقيصر، وهو الفاروق الذي فَرَّقَ بين الحق والباطل.

كَمْ عابدٍ دمعُه في الخدِّ أجراهُ عُبّاد ليلٍ إذا جنَّ الظلام بهمْ
هبُّوا إلى الموت يستجدون رؤياهُ وأسْدُ غابٍ إذا نادى الجهاد بهمْ

فالنصر حصنٌ متينٌ بوابُته الخوف من الله
فلم يَنْتَصر الصحابة إلا بخوفِهم من الله،
فالعين التي باتَتْ تَحرس في سبيل الله
هي العين التي بكت من خشية الله
وإن اللسان الذي يَصْدح بالتكبير لحظة النصر
هو ذلك اللسان الذي صَدَحَ بالقرآن ليلًا،
فالأمةُ التي انهَزَمَت في ميدان الليل
كيف لها أن تنتصر في ميدان النهار؟!
وإنَّ اليَدَ التي لا تَقْوى على حمل المصحف
كيف لها أن تقوى على حمل السلاح؟!

وصدقَ مَن قال:

لا يُـــصنع الأبطـــالُ إلّـــ لا في (مـــساجدنا) الفـــساخْ
في روضـــــة القـــــرآن في ظِـــلِّ الأحاديـــث الـــصِّحاخْ
يـــا قـــومُ إن الأمـــر جـــدْ دٌ قـــد مـــضى زمـــنُ المِـــزاخْ
مـــن خـــان (حـــي علـــى الـــصلا ة) يخـــونُ حـــيَّ علـــى الكِفـــاخْ
شَـــعْبٌ بغيـــر عقيـــدةٍ ورقٌّ تُذرِّيـــــه الريـــــاخْ

صلاح الدين الأيوبي يَذْهب ليتفقد أحوال الجيش ليلًا، فيذهب لخيمة بها عدد من الجنود يقرؤون كتاب الله ويقيمون الليل فيقول: من هنا يأتي النصر، ويمر على أخرى فيجد من فيها نيام فيقول: من هنا تأتي الهزيمة.

وما أكثر الخيام التي تؤتى منها الهزيمة في زماننا!

وما أحوجنا إلى أن ننيرَ خيامَ قلوبِنا بالخوف من الله حتى تستحق تلك القلوب النصر والتمكين!

كان أبو الدرداء رضي الله عنه ينادي بالجنود قبل الغزو: يا أيها الناس! عملٌ صالح قبل الغزو، فإنما تقاتلون بأعمالكم.

وحينما الْتَقَى سعد رضي الله عنه وأرضاه في القادسية برستُم قائد فارس والذي كان يقود أعتى إمبراطورية في التاريخ يومها،

وقبل المعركة بليلةٍ واحدة أرسل رُسْتم جاسوسًا له وقال: اذهب وادخل في جيشِ المسلمين، وانظر ماذا يفعلون في الليل؟ وعُدْ وادخل في جيشِنا وانظر كذلك ماذا يفعلون؟

انظر معي إلى أنَّ رستم لم يطلب أخبار الجيشين في النهار وإنما في الليل، هنا رستم يبحث عن سِرِّ قوة المسلمين في النهار رغم قِلَّتِهِم العسكرية، هنا رستم يتساءل ما الذي يزرع في قلوب هؤلاء كل هذه القُوَّة والعزة والثبات والعزيمة، فكان لا بد له أن يسألَ عن ليلِهِم!

فَذَهَب الجاسوس إلى جيش سعد وإذْ بحُرَّاسِ البوابة يَتَدارسون القرآن في الليل ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾،

حراس الحصن هم الحُفَّاظ لكتاب الله! فهل سيُهزم الحصن؟

فمَنْ هم حُرَّاس حصن هذه الأمة في هذا الزمان؟

لعل الإجابة تكاد أن تخلع القلب من مكانها ولا وحول ولا قوة إلا بالله!

ثم ذَهَبَ هذا الجاسوس فرأى آخرين يدعون الله ويناجونه

ويسألون الله النصر، ورأى آخرين يقيمون الليل ورأى آخرين يتدرَّبون على السهام ويجردون سيوفهم ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾

ثم ذَهَبَ ذلك الجاسوس إلى جيشِ فارس فَوَجَد أنَّ الجيشَ قد انقسم قِسْمَين؛ قِسْم مع الخمر والفاحشة، والقسم الآخر نائم!

فعاد إلى رستم وأخبره بالخبر، فعَضَّ رستم على أصابعه ثم قال: (هُزمنا من الآن).

لماذا استبشر رستم بالهزيمة قبل المعركة؟

هل أخبره الجاسوس أنَّ جيش سعد يمتلك صواريخ عابرة للقارات، أو أسلحة ثقيلة؟

كلا؛ ولكن أخبره أنَّ في الحصن ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ .

وأن في الجيش ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ .

كم نحن بحاجةٍ إلى الخوف من الله في شوارعنا وفي مدارسنا
وفي جامعاتنا وفي أسواقنا وفي بيوتنا
يوم أنْ كان الخوف من الله في الصدور كنا سادة الأمم
ويوم أن ضاع صِرنا أتباعًا للأمم!
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

يـا أُمَّـةَ الحـق إنَّ الجُـرْح مُتَّـسَعُ فهل تُرى من نزيفِ الجرحِ نعتبرُ
مـاذا سـوى عـودةٍ لله صـادِقةٍ عسى يبـدَّل هـذا الحـالُ والـصُّوَرُ

هِمَمٌ تناطح السحاب

إذا كانَ قلبي لا يصاحبُ هِمَّتي فما هُوَ لي قلبٌ ولا أنا صاحبُه

إن الهِمَمَ مقياسُ الأُمَم،

وهي القيمة الحقيقة التي تعبرُ عن كُلِّ إنسان.

فكم من عليلٍ في الجسد بلغت هِمَّتُه الثريا والسحاب!

وكم من صحيحٍ في الجسد، مفتول العضلات،

قوي الشكيمة، همَّتُهُ تحت التراب!

ولقد سجّلتِ الأيامُ والأزمنةُ الكثيرَ من الحالات والقصص التي تُعَبِّرُ عن علوِّ همة أصحابها، وسموِّ عزيمةِ رجالها، فسَجَّلهم التاريخُ بمدادٍ من نور، وكانت همتهم بمثابةِ جسور، وصلوا من خلالِها إلى السرور والحبور.

فالطموحُ لا يَحُدُّه حدود، ولا تربطه قيود، والسيرُ إلى الله المعبود، يَتَطَلَّبُ هِمَّةً وتحدي وصمود، وإرادةً وصدقًا في العهود.

يقول الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

فكن رجلًا رِجْلُه في الثرى وهامةُ همَّتِهِ في الثُّريّا

الهمةُ تَتطلَّب أن تكونَ روحُك وقّادة، بالعزم والإرادة،

وأن يكون قلبُك تزَيِّنُه العبادة،

فلا تعرف في الحقِّ ذلًّا ولا هوادة،

تسير نحو المجد بهمةٍ صُلبة، وروحٍ عَذبة،

وتمضي نحو الأهدافِ بعزمٍ أكيد،

وقلبٍ رشيد، ونفسٍ لا يُرضيها إلا جناتُ الخلود.

فالمشقةُ في الحياة تُوصِلُك نحو أهدافِك في الحياة وفي الآخرة، وتُقربك من طموحِك لتَصِلَ إليه لا محالة!

يقول المتنبي:

لولا المشقةُ ساد الناس كلُّهُمُ الجودُ يُفقِرُ والإقدامُ قَتّالُ

الأجساد تتعبُ وتَشْعُرُ بالهزال..

لكن الروحَ وَقودُها الآمال،

فهي تسير إلى المرادِ بصبر دون كلل،

وتحقق الأهداف دون تعبٍ أو ملل،

والجسمُ ليس عقبةً أمام روحٍ عنوانُها الإصرار،

فمَنْ يمتلك همةً وقّادة يَصِل إلى مرادِه حتمًا

مهما طال الزمان أو قَصُر.

قال المتنبي:

وإذا كانتِ النفوسُ كبارًا تعبتْ في مُرادِها الأجسامُ

وقال أيضًا:

ولم أرَ في عيوبِ الناسِ شيئًا كنقصِ القادرينَ على التمام

وإني لأعجب من إنسانٍ قادرٍ على الوصول وتجاوز العقبات؛

إلا أنَّ ضعفَ همته يتسبب له بخسارةٍ في دنياه وآخرته،

فكم من الناس التقيتُ فوجدت أعذارًا تحول دون وصولهم إلى العلياء! إلا أنَّ همتهم التي بلغت عنانَ السماء، تجاوزت كُلّ العقبات والأعذار، وحملت التحدي والإصرار، حتى وَصَلَت

إلى مبتغاها، وحققت بعلوِ الهمةِ رجَاها.

إذا غـــامرتَ في شـــرفٍ مَـــرُومِ فـــلا تقنـــعْ بمـــا دونِ النجـــومِ

فطعـــمُ المـــوتِ في أمـــرٍ حقيـــرٍ كطعـــمِ المـــوتِ في أمـــرٍ عظـــيمِ

يـــرى الجبنـــاءُ أن الجُـــبنَ حـــزمٌ وتلـــك خديعـــةُ الطبـــعِ اللئيـــم

فعليكَ ألّا تتَرَدَّدَ في الوصولِ إلى ما تريد،

وعليك بذلُ الجهد لتُحَقِّق المقصود،

فإنَّ التاريخَ الذي صَنَعَه أولو العزم من الرجال الشامخين،

ضرب الأمثلة في الدنيا والدين، حتى أصبحت هِمَّتُهم منارًا نهتدي من خلاله،

ونقتفي آثارَه من أجل نيل المعالي.

وثِقْ أنَّ الإصرارَ والمحاولة سبيلُك الوحيدُ للنجاة في الحياة،

وإذا أردتَ بناء مستقبلك، فجاهد نفسَك واصنع من أخطاءِ الماضي سُلَّمًا للحاضر والمستقبل.

ومـــن يتهيَّـــبْ صـــعودَ الجبـــالِ يَعِـــشْ أبـــدَ الـــدهرِ بـــين الحُفَـــرْ

إن عالي الهمة لا يعرف اليأسُ إلى قلبِه سبيلًا

فتراه دوما ذاكرًا لربه يلهج بالدعاء باستمرار

صاحب رجاء كبير في فضل الله وخيره وعطائه ومغفرته وسعة رحمته، يعيش في اتِّزان في حياته،

ليس بالمغرور ولا الطائش، ولا الفاتر العاجز الكسلان

يرى النور المشرق دومًا في كل شيء

يحاول أن يجد مخرجًا في كُلِّ أزمة

متشبث بحبالِ الصبر عظيم القوى

يجيد صناعة المراكب التي ينجو بها من الغرق..

وهو صاحبُ أملٍ واسع وطموحٍ مشرق

تراه متقنًا أشياءَ كثيرة، عنده حلول وفيرة، وعلاقات واسعة

يسع الناس بأخلاقِه العالية وأسلوبه الجميل

وقلبِهِ الكبير، مصاحبًا أهل العزائم، تاركًا أهل الهزائم

مجاهدًا لنفسه قاهرًا لهواه، مشتغلًا بالمعالي هاجرًا الدنايا، هو في شُغُل على الدوام،

محافِظًا على عمره الغالي؛ إذ كل دقيقة عنده تساوي الدنيا وما فيها..

ما أحوجنا في زمنٍ ضَعُفَت فيه الهمم

وخارَت فيه العزائم وتوالَت فيه الهزائم

وأحاطت البأساء بأُمَّتنا وكَثُرَ فيها المرجفون والمخذلون واليائسون إلى عزيمةٍ بَكرية، ووثبةٍ عُمَرية، وصَرخةٍ أيُّوبية،

توقظ أمتنا من سباتها العميق، وتعيدها إلى رشدها

وتذكرها مجد آبائها السليب، وتاريخها المشرق العظيم!

وقد صدق القائل: "رُبَّ همَّة أيقظتْ أُمَّة"

امرأةٌ ضعيفة بَلَغَت بها هِمَّتُها أن تُدافِعَ عن النبي ﷺ في معركةٍ من المعارك الدامية، وتصاب بجراحات غائرة وهي صامدة، تقاتل حوله لم تَرْهَبْ جموع الأعداء..

لله درُّها! أيُّ همّةٍ بَلَغَت بها هذا المقام؟!

إنها أمُّ عمارة نسيبةُ بنتُ كعبٍ المازنيةُ التي قاتلت يوم أُحُدٍ بكُلِّ إقدام وبَسالة، وخاضتْ في أعداء الله يَمنة ويَسرة، وجُرِحَتِ اثني عشر جرحًا وهي تذودُ عن رسول الله ﷺ، وتقاتلُ عنه وتردُّ عنه جموعهم كأنها عمودُ صُلْبٌ لا تمكنُ إزاحتُه، وكان كل ما التفت النبي ﷺ إلى جهة وَجَدَها تدافع عنه.

إنها الهمَّةُ العالية التي تَرْفَع صاحبها مقام العظماء، وتضعه بين النجوم، وترقّيه مدارج السالكين، ومنازل العظماء السائرين!

وانظر إلى همَّةِ وعزيمةِ صلاح الدين الأيوبي، ذلك البطل العَبْقري المسلم، والقائد الفريد الهمام الذي كانت هِمَّتُه تناطِحُ السحاب، فانطلق بعزيمته يُوحِّد الأمة ويجمع القلوب ويدرب الجيوش ويجهز الكتائب ويربي الأجيال ويشحذ الهمم ويصقل العزائم؛ بل بقي ممتنعًا عن الضحك عشرين عامًا، ولما سُئِلَ عن ذلك؟ قال: كيف أضحك والمسجد الأقصى أسير؟

فما رؤيَ ضاحكًا إلا بعد أن قَهَرَ الصليبيين في معركة حطين، ومَرَّغَ أنوفهم بالطين، وجعلهم عبرة لمن اعتبر، وألحق بهم هزيمة لم تبق ولا تذر؛ حيث سحق جموعهم، وفلّ حديدهم، وأباد خضراءهم، وقطع دابرهم، وتمَّ له فتحُ بيت المقدس، وتحريرُ المسجد الأقصى وفلسطين، ورفعُ راية النصر خفاقة.

إنه صلاح، بقية باقية من أصحاب الهمم العالية التي ناطحت السحاب

لقد كان من أصحاب العزائم التي لا تَرضى بغير الله بديلًا، ولا تلتفت إلى مطامِعَ الدنيا وزخارف الحياة ومُتَعِها

حيث الهوان

ورحم الله شاعر الإسلام وليد الأعظمي إذ يقول مستحثًّا الهممَ باعثًا العزائم مناديًا القلب الفتي والضمير الحي:

كُنْ رابِطَ الجأشِ وارفعْ رايةَ الأملِ وسِرْ إلى الله في جِدٍّ بلا كَسَلِ
وإنْ شَعَرْتَ بنقصٍ فيك تعرفُه فَغَذِّ روحك بالقرآن واكتملِ

وقِفْ معي على جوابٍ عظيم للإمام أحمد بن حنبل وقد سئل: يا إمام! متى يَجِدُ العبدُ طعمَ الراحة؟ فقال: «عند أوَّل قدم يضعها في الجنة»..

نعم ليس لصاحبِ الهمة العالية راحة في هذه الدنيا؛

لأن حالَه مشغولٌ بصناعةِ المجد العالي تاركًا الراحة جانبا..

بَصُرتُ بالراحةِ الكُبرى فلمْ أَرَها تُنالُ إلا على جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

ولقد كان الفاروق رضي الله عنه لا يرتاح، وليس في جدوله وقت للراحة، وليس في قائمة أعمال يومه وقت للاتكاء؛ بل هجر الراحة تمامًا، وشمر عن ساعد الجِدِّ؛ لئلا يَسْبِقَه إلى الله أحد، فزهد في الدنيا رغم أنها خرَّت بذهبها وقصورها وخزائنها بين يديه، فلم يتلفت إليها؛ بل ركلها بقدمه، وبقي يربط على بطنه الحجر،كان يحيي الليل والنهار، ولا يهجع إلا ساعة وسط

النهار، ويقوم بعدها فزعًا مرعوبًا يقول: إنْ ضيعتُ ليلي أهملتُ حقَّ ربي وضيعتُ نفسي، وإن أهملتُ نهاري ضيعتُ حق رعيتي!"

قال له عليٌّ رضي الله عنه: «لقد أتعبت الخلفاء بعدَك يا أمير المؤمنين!»...

وفي خلافته رضي الله عنه وقعت بالمدينة وما حولها من القرى مجاعةٌ شديدةٌ أهلكت الأخضر واليابس، وكان ذلك في سنة ثمان عشرة للهجرة بعد عودةِ الناس من الحج، فحُبِسَ المطر من السماء، وأجدبتِ الأرضُ، وهلكتِ الماشيةُ، وحَصَلَ ضُرٌّ شديد، ومسغبةٌ عظيمة، واستَمَرَّت هذه المجاعة تسعة أشهر، حتى صارت الأرض سوداء فشُبِّهَتْ بالرماد كما ذكر ذلك المؤرخون، فواسى عمر رضي الله عنه الناس بنفسه، فَحَرَمَها من الطعام الذي لا يجده الناس.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: "تقرقر بطنُ عمر وكان يأكلُ الزيت عام الرمادة، وكان قد حَرَّم عليه السمن، فنقر بطنه بأصبعه، وقال: تقرقر إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس" [حلية الأولياء].

وأكل عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه الشعير، فصوّت بطنه، فضَرَبَه بيده، وقال: "والله ما هو إلا ما ترى حتى يوسِّعَ اللهُ على المسلمين" [مصنف ابن أبي شيبة: 34483]

وعمل عمر رضي الله عنه على جلبِ الطعام من الأرياف، وكان يدعو الله عز وجل أن يُفَرِّج عن المسلمين كربتهم.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وهو يصف عام الرمادة: "وكانت سنةً شديدةً مُلِمَّة... اجتهد عمر فيها بإمدادِ الأعراب بالإبل والقمح والزيت من الأرياف كلّها، حتى بلحت الأرياف كلّها مما جهدها ذلك، فقام عمر يدعو فقال: "اللهم اجعل رزقهم على رؤوس الجبال"، فاستجاب الله له وللمسلمين فأغاثهم بعد قحطٍ، وأمطرهم بعد جَدْب.

لقد عاش عمر رضي الله عنه معاناة الناس، حتى قال أسلمُ رضي الله عنه: "كنا نقول: لو لم يرفعِ اللهُ المحلَ عام الرمادةِ، لظَنَنّا أن عمر يموتُ همًّا لأمر المسلمين".

لقد كان يعيش همومهم، ويَشْعُر بمعاناتهم، ويتألم لآلامهم، وهكذا صاحب الهمة العالية.

يقول الشيخ عامر الخميسي داعية اليمن وأديبها: "الهمُّ ابنُ الهِمَّة ومتولِّد منها، وهو أوَّل نتاجٍ لها فمتى ما كَبُرت الهِمَّة كَثُرَ الهمّ، وإذا أبرقت الهِمَّة اشتعلتِ الهمومِ، وبقدرِ الهِمَم تكون الهُمُوم، ولا همّ لمن لا هِمَّة له...".

ولقد عاش عمر رضي الله عنه بهمة عالية تناطح السحاب، وبَقِيَت سيرته كنارٍ على علم في دنيا الناس تحدثنا عن ليله ونهاره، وسلمه وحربه، وحِله وتَرحاله، وآلامه وآماله، ونومه ويقظته.

قِفْ أَيُّهَا التَّارِيخُ سَجِّلْ صَفْحَةً غَرَّاءَ تَنْطِقُ بِالخُلُودِ الكَامِلِ
حَرِّكْ بِسِيرَتِهِ الْقُلُوبَ فَقَدْ قَسَتْ وَعَدَتْ بِقَسْوَتِهَا كَصُمِّ جَنَادِلِ

وهذا الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه زَهِد في الدنيا بعد أن وَصَلَت إليه، وكانت له نفس توَّاقة كلما أحرزت هدفًا عزيزًا كبيرًا غاليًا تاقت إلى ما هو أعلى وأسمى، فها هو يقول عن نفسه: «إنّ لي نفسًا تواقّة، وإنها لم تذق في الدنيا طبقةً إلا تاقت إلى التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافة -وهي أرفع الطبقات- تاقت إلى ما عند الله عز وجل»؛ أي الجنة.

كان عَلَمُ الأُمَّةِ وأميرُ المحدثين وشيخُ الرواية الإمام البخاري يستيقظ في الليل، يسجِّل ما يخطر له من خواطر، ويقيد

ما تتوارد عليه من أفكار، ويدوِّن ما ينهمر عليه من علم؛ حيث يوقد السراج في كل مرة ويطفئه، فيتكرر ذلك منه، حتى أحصت ابنتُه ذات ليلة أنه أوقد السراج ثمان عشرةَ مرة.

وبقي المحدِّثُ الجليل، والفقيهُ المجتهد النبيل، الإمامُ النووي سنتين لا يضع جنبه على الأرض، فلله درُّهما حيث بلغ علمهما الآفاق وشرَّقتْ كتُبهما وغرَّبت في الخافقين..

إن المؤمنَ لا بُدّ أن تكون هِمَّتُه عالية، يسعى على الدوام إلى معالي الأمور ومكارمها وعظيمها وفيما ينفعه وينفع أمته، وألا يكون ضعيف الهمة كسولًا محبطًا، يحب الراحة والكسل والدعة، فإنه:

بقدرِ الكدِّ تُكتَسب المعالي ومَن طلبَ العُلا سهر الليالي

ولله درُّ ابن حزم! وهو يلهب الحماس، ويحرك جذوة الإحساس، بكلمات ذات أثر، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذاتِ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ في دُعاءٍ إلى حقٍّ، وفي حماية الحريم، وفي نُصرةِ مظلوم، وباذِلُ نفسه في عرض دنيا، كبائع الياقوت بالحصا".

إن صاحِبَ الهمة -كما قيل عنه- حتى وإنْ حطَّ نفسَه تأبى إلا العلو، كالشُّعلة من النار يخفيها صاحبُها وتأبى إلا ارتفاعًا".

قال المتنبي:

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومِ فلا تقنع بما دون النجومِ

إن هناك من الناس من يُرى عظيمًا في همته،

رابطَ الجأش، قويَّ الإرادة، لا يرضى بسفاسف الأمور وحقيرها،

وهناك من يُرى دنيء الهمة، ضعيف الإرادة، لا يرضى إلا بالدون، فصاحبُ الهمة يتحدى الصعاب، ويقف صلبًا أمام الأزمات،

وضعيفُ الهمة يعيشُ صغيرًا لا يَقْوى على المواجهة، ولا يُؤثِّر فيما حولَه.

وفي هذا يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد عَرَفْتُ بالدليلِ أن الهِمَّة مولودةٌ مع الآدمي، وإنما تَقْصُر بعضُ الهِمَم في بعض الأوقات، فإذا حُثَّت سارتْ، ومتى رأيتَ في نفسك عجزًا فَسَلِ المنعم، أو كسلًا فالجأ إلى الموفِّق، فلَنْ تَنال خيرًا إلا بطاعته، ولن يفوتك خيرٌ إلا بمعصيته".

إن صاحِبَ الهمة العالية لا تَنْتَهِي طموحاته
ولا تتوقف خطواته
فهو كالصقر الذي يُحلِّق على الدوام في الذرى
ولا يرضى بالجحور والحُفر
يَعْشَقُ القِمَمَ، ويرقى نواطح الجبال
وأصحابُ النفوس التوّاقة على الدوام في شغلٍ دؤوب
وحلول مستمرة وجُهْدٍ دائم

على قَدْرِ أهل العزم تأتي العَزائم وتأتي على قَدْرِ الكرام المكارمُ

يقول محمد إقبال عن الحالِ الذي وَصَلَ إليه المسلمون وهم الذين بنوا الحضارة في الأمس:

"عجبًا لك أيها المسلم!
تجلت لك الآفاق، وغابت عنك نفسك!
إلى متى تَظل غافلًا؟!
إن نورَك الوهَّاج أنارَ العالم القديم،
ولا تزال اليد البيضاء التي وَرثتَها عن موسى في كُمِّك"

ويقول:

أرى الكافر حيرانًا له الآفاق تيه بينما المؤمن كونٌ تاهَت الآفاق فيه

يقول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "إنَّ لي نَفْسًا توّاقة، وما حققت شيئًا إلا تاقَت لما هو أعلى منه؛ تاقت نفسي إلى الزواج مِن ابنةِ عَمي فاطمة بنت عبد الملك فتَزَوَّجتها، ثم تاقَت نفسي إلى الإمارة فولِّيتُها، وتاقَت نفسي إلى الخلافةِ فنلتُها، والآن تاقت نفسي إلى الجنة، فأرجو أن أكونَ مِنْ أهلِها".

لقد كان أصحابُ الهمم العالية التي ناطَحَت السحاب في شأنٍ عجيب، فهل مرَّ عليكم خبرُ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد كان طموحه أن يَدْخُلَ من أبوابِ الجنة الثمانية؟

ولِمَ لا، وقد بذل كل ماله في سبيلِ الله، ورافَقَ الرسول ﷺ في أصعب مواقف حياته، وخاطَرَ بِنَفْسِه مع الرسول في الشدائد؛ بل لم يتركه أبدًا منذ أنْ أسلم، وسَخَّر كل طاقاته وحياته في سبيلِ نصرة الدين وإعلاء كلمة الله في الأرض ورفع راية التوحيد خفاقة في المعمورة؛ فاستحقَّ هذا الذكر الجميل والخلود الحسن والمجد الباذخ!

ابن القيم في "مدارج السالكين" يُعَرِّف الهمة العالية مستنهضًا أصحاب العزائم مُحَلِّقًا بهم في سماء الطموح وآفاق المعالي فيقول: "علوُّ الهمة ألَّا تقفَ -أي: النفس- دون الله،

وألَّا تتعوضَ عنه بشيءٍ سواه، ولا تَرْضى بغيرِه بدلًا منه، ولا تبيع حظها من الله وقربه والأنس به والفرح والسرور والابتهاج به بشيءٍ من الحظوظِ الخسيسة الفانية، فالهِمَّةُ العالية على الهِمَمِ كالطائر العالي على الطيور لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم، فإن الهِمَّة كُلَّما عَلَتْ بَعُدَت عن وصولِ الآفات إليها، وكلما نزلت قصدتها الآفات ".

لقد استعاذ النبي ﷺ من العجزِ والكسل، وكان يُكثِر من الاستعاذة منهما، فقد ثبت في سنن الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: " كثيرًا ما كُنتُ أسمعُ النَّبيَّ ﷺ يدعو بِهَؤلاءِ الكلِماتِ: «**اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ منَ الهمِّ والحزنِ والعَجزِ والكَسلِ والبُخلِ وضَلَعِ الدَّينِ وغلبةِ الرِّجالِ**» [سنن الترمذي: 3484].

أتدري فيمن نَزَلَت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]؟

إنها نزلت في الفدائي البطل أنس بن النضر أحد العظماء الأفذاذ الذين أنجبتهم المدرسة المحمدية الخالدية، فَعَلَى سفح أُحُد وفي تلك المعركة الدامية لما أُشيع خَبَر مقتل النبي ﷺ كان

له شأن عجيب؛ فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك قال: غابَ عمي أنس بن النضر عن قتالِ بدر، فقال: يا رسول الله! غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرينَّ اللهُ ما أصنع!

فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: اللهُمَّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء – يعني: أصحابه – وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء – يعني: المشركين – ثم تَقَدَّم فاسْتَقْبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنةَ وربِّ النضر! إني أجدُ ريحها من دون أُحُد، قال سعد: فَما استطعتُ يا رسول الله! ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربةٍ بالسيف أو طعنةٍ برمح أو رميةٍ بسهم، ووجدناه قد قُتِل وقد مَثَّل به المشركون فما عَرَفَه أحد إلا أخته ببِنَانِه.

قال أنس: كنا نرى أو نظنُّ أنَّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]

وهذا عُمير بن الحمام الصحابي الجليل في يومِ بدر يَسْمَعُ رسول الله ﷺ يقول: «**قوموا إلى جنةٍ عرضُها السماوات والأرض**» قال عمير بن حمام الأنصاري: يا رسول الله! جنةٌ

عرضها السماوات والأرض، قال: نعم، قال: بخٍ بخٍ، فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك: بخ بخ؟ قال: والله يا رسول الله! إلا رجاءَ أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، قال: فأخرج تمراتٍ من قَرْنِهِ، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة! قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل".

ألا تهزُّك كلماتُه وهو يصرخ في نفسِه: "إنها لحياةٌ طويلةٌ حتى آكل هذه التمرات؟!

ألا تتأمل معي عظيم شوقه، وكِبَرَ هِمَّته، وجذوة طموحه؟!

ثم انظر أيضًا إلى صحابيٍّ آخر قَرَّر أن يَطَأ بعَرْجته الجنة، وهو عمرو بن الجموح رضي الله عنه، وتأمَّل كيف قَرَّر أن ينتهز الفرصة، فقد ثبت في الحديث عن أشياخٍ من بني سلمة قالوا: "كان عمرو بن الجموح أعرجَ شديدَ العرج، وكان له أربعةُ بنون شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا، فلمّا أرادَ رسول الله ﷺ أنْ يتوجه إلى أُحُد، قال له بنوه: إن الله عز وجل قد جَعَلَ لك رخصةً، فلو قعدتَ فنحن نكفيك، فقد وضع الله عنك الجهاد، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إن بنيَّ

هؤلاء يمنعوني أن أخرج معك، والله إني لأرجو أن أستشهد، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال له رسول الله ﷺ: «**أمَّا أنت فقد وضع الله عنك الجهاد**»، وقال لبنيه: «**وما عليكم أن تدعوه لعل الله ﷻ يرزقه الشهادة؟**».

فخرج مع رسول الله ﷺ فقُتل يوم أُحُد شهيدًا".

ولقد ولى الحجاجُ محمَّدَ بنَ القاسم فسارَ بالجيوش حتى فتح السِّند والهِند، وكان عُمُرُه سبعَ عشرةَ سنة.

وقد كان عُمر محمد بن القاسم يومها حين قادَ الجيوش وتحرَّك بالكتائب وفَتَحَ السند والهند سبع عشرة سنة، والسِّند والهِندُ يرادُ بهما باكستان وبنجلاديش والهِند وكشمير، كل هذه المنطقة يقال لها: الهِند والسِّند، فتحها هذا البطل العبقري الذي نازَلَ الأبطال واقْتَحَمَ المدن ودك الحصون وهو في هذا السن، فأين من يسير هذه السيرة ويسلك هذا الدرب ويقفو هذا الأثر؟!

أولئك آبائي فجئني بمثلهمْ إذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ

وإنّ مِنْ أصحاب الهمم التي ناطَحَت السحاب زيدَ بنَ ثابت الذي تَعَلَّم لغةً جديدةً في عِدَّةِ ليالٍ، فقد وَرَدَ في مسند أحمد عن خارجة بن زيد أن أباه زيدًا قال له: لما قَدِمَ النبي ﷺ المدينة

ذُهِب بي إلى النبي ﷺ فأُعْجِب بي، فقالوا: يا رسول الله! هذا غلامٌ من بني النجار معه مما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة، فأَعْجَبَ ذلك النبي ﷺ وقال: «**يا زيد! تَعَلَّم لي كتاب يهود فإني والله ما آمن يهود على كتابي**»، قال زيد: فتَعَلَّمت كتابهم ما مرت بي خمس عشرة ليلة حتى حذقتُهُ، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب

يا سبحان الله! في خمسة عشر ليلة أتْقَن لغة اليهود وخَبِرها، وعرف تفاصيلها، وأحاطَ بمفرداتها، وجاء إلى النبي ﷺ مستبشرًا فرحًا بهذا الإنجاز، وما وَصَلَ إلى ما وصل إليه إلا بجهدٍ مستمر، وعمل دائم غير منقطع، ومحافظة على وقته، وعدم تضييع دقائق الزمن وساعات العمر في الرخيص، وهذا ما يؤكده الإمام ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ حيث يقول بكل جدية وبراعة: "إنَّه لا يحلُّ لي أن أضيِّع ساعة من عمري، حتى إذا تَعَطَّل لساني عن مذاكرة ومناظرة وبصري عن مطالعة؛ أعملت فكري في حالِ راحتي".

تحَدَّثَ الرواة أن أبا أيوبٍ الأنصاريَّ كان مِنْ أحبِّ الصحابة إلى رسول الله ﷺ، وقد خَصَّهُ النبيُّ لما قدم المدينة بالنزول

عليه في بيته، وذلك فَضْلٌ كبير انهمر عليه،

فأقام الرسول عنده، فأكرم ﷺ النبي إكرامًا عظيمًا،

وبقي ﷺ في بيته حتى أتم بناء المسجد،

وبُنِيَ له بيتُه!

وعاش جنديًا مخلصًا من جنودِ الإسلام،

ومات غازيًا في سبيل الله شجاعًا مقدامًا،

لا يغيب عن حرب، ولا يتكاسَل عن غزو،

وشهد مع رسول الله ﷺ الغزوات كلها،

وكانت آخر غزواته حين جَهَّز معاوية ﷺ جيشًا عرمرمًا،

وكان الهدف فتح القسطنطينية،

وكان أبو أيوب قد صار شيخًا كبيرًا طاعنًا في السن

يناهز الثمانين من عمره؛

لكنه لم يقعد أبدًا بحجة كِبَرِ السِّنِّ؛ بل حمل سيفه على عاتقه

وركب فرسه والناس يقولون له: أنت كبيرٌ عذرك الله!

فلم يسمع كلامهم؛ بل جعل يقرأ قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: 41]

وكانَ يقولُ وكأنَّه يُحدِّث نفسه: لا أجدُني إلا خفيفًا أو ثقيلًا،

وخرج معهم مجاهدًا، فَنَزَل عليه المرض في الغزو
واشتدت عليه وطأة الحمى، فَذَهَب قائد الجيش يعوده،
وقال له: ما حاجتُك أبا أيوب؟!
فقال: إذا أنا مِتُّ فاحملوني إلى أرضِ العدو وأمعِنوا في أرضهم ثم ادفنوني.
فكانت آخر وصاياه أن حضَّ المسلمين على الجهاد،
وأن يحملوه معهم ليدفنوه عند أسوار القسطنطينية،
ولَفَظَ المجاهد الكبير أنفاسَه الطاهرة،
فلما كان الصباح قالت الروم للمسلمين: لقد كان لكم في الليل شأن عظيم،
فقالوا: هذا رجل من أكابر أصحاب نبينا، وأقدمهم إسلامًا،
قد دفناه حيث رأيتم، والله لئن نُبِشَ قبرُه
لا يُضرَب لكم ناقوس ما كانت لنا دولة،
فكان مدفنه في المنطقة الواقعة على الضفة الجنوبية
الغربية لخليج القرن الذهبي في شمالِ غرب أسوار القسطنطينية،
وبقي الروم يتعاهدون قبره ويزورونه..

فانظر إلى سموِّ هِمَّتِه، وعلوِّ طموحه، وهو ينفر للجهاد رَغم كِبَرِ سنه وثقله..

فوجِّه قلبك إلى العظائم

ولا تُفتَّ في عَضُدِك العقباتُ

ولا تستسلم للإحباط

واستصغر ما دونَ النهاية

وأطلق لنفسك إشراقها

وسر دون كلل أو ملل لتصل إلى معالي الأمور!

لقد حثَّ اللهُ عباده على علوِّ الهمة فقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: 123]

فَنَدَب اللهُ عباده إلى المسارعة إلى القربات،

والإسراع إلى عمل الخيرات والصالحات،

وكذلك قال تعالى حاثًّا رسوله ﷺ على علو الهمة فقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35].

وقال سبحانه وتعالى واصفًا أصحاب الهمم العالية من عباده المؤمنين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: 37]

- وقال تعالى ذاكرًا قومًا من المؤمنين سَمَتْ بهم همتهم: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: 23].

إن صاحب الهمة العالية لا يعيش لنفسه،

فمن يعيش لنفسه يعيش صغيرًا، ويموت صغيرًا،

أما الذي يعيش للأمة فإنه يعيش كبيرًا، ويموت كبيرًا،

فهو كبير لما يحمل من مبادئ مُثلى وقيمٍ عُليا

وكلماته تسري حيّة في أرواحِ الناس بعد موته؛

لأنه عاشَ من أجلِ إيصالها إلى الناس!

إليك يا صاحب الهمة العالية!

لا ترض بالدون

ولا تهتم بالسفاسف

ولا تصاحب أهل البطالة والخمول

ولا ترتبط بأهل الهمم الدنيئة والمتقوقعين على أنفسِهم

الذين ما أحرزوا نصرًا ولا صنعوا مجدًا

ولا قدَّموا خيرًا ولا اتبعوا حقًّا

بل كن بعيدًا عنهم حُرًّا طليقًا

متوهِّجًا بالعزم، مُتَسَلِّحًا بالإرادة، قويَّ الإيمان بربك،

عظيمَ الصلة به، مدافعًا عن حياض أمتك ومنهجها القويم!

وانهض من وكر الكسل، واتبع آثار السالكين تصل،

وكن واثقًا من نصر الله لك، وفتحه عليك،

وأخذه بيدك في المسالك، وغوثه لك في المهالك،

ولا ترجو إلا إياه، ولا ترهب أحدًا سواه!

إذا كنتَ باللهِ مُستعصما فماذا يضيرك كيد العبيد

الذي يعيش بهمةٍ عالية يناطِحُ السحاب بهمته،
يؤثِّر في الدنيا ببصمته،
ويرحل إن رَحَلَ بجميل الذكر وعظيم الأجر،
أما غيره منحطُّ الهمة فإنه يعيش دنياه غير حميد، ويموت غير فقيد.

قبل الرحيل

(الموت هو الرحلة الأخيرة التي لا يُمكن إلغاؤها ولا يُمكن تأجيلها أو التعديل عليها)

إنّ الموتَ هو انقطاع الأجل وغياب الأحباب،

يتسلل بيننا بصمتٍ وهدوء تام،

ودون أن نَشْعُرَ يقطفُ أرواحنا وأرواح أحبابنا وأقربائنا وأسرنا؛

ليؤكد لنا باستمرار أن الدنيا عبارةٌ عن جسرٍ مِنَ الميلاد إلى الوفاة، يَعْبُره الإنسانُ مُتسلِّلًا في عُمُرٍ زمنيٍّ لا يتوقف ولا ينتظر ولا يتأخر ولا يُسرع؛ لأنه قدرٌ محتوم ومُسجّل.

إنَّ التفكيرَ في الموت دافِعٌ للشعور بفناء الدنيا وانتهاء الحياة، وهو دافعٌ للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى،

فلا خلودَ لأحد ولا بقاء لإنسان،

كلُّ مَن على الأرض سيفنى ويموت، وسيصل إلى مرحلة السكوت، سيتوقف عن الكلام، ويذهب حتمًا إلى دار يطول فيها المقام.

فإما إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض،

وإما إلى نار تلظّى وجحيم تستعرُ؛ أعاذنا الله وإياكم منها!

إنه الفناءُ بلا عودة، إنه الرحيلُ بلا لقاء،

إنه مُفرِّقُ الجماعات، وهادم اللَّذات، ومشتِّتُ الفريق، ونهايةُ الطريق،

لذا لا بُد من الاستعدادِ للقاءِ الله بشكلٍ يبيض وجهك على رؤوس الخلائق.

فكم من حبيبٍ فارقنا دون استئذان!

وكم والدٍ مضى إلى دارِ الحق والإيمان!

وكم من أخٍ تخطَّفهُ الموتُ منا فَرَحَل دون إخبار!

وكم من الناس ماتوا وتركوا الديار!

حتى أصبحت الدارُ أطلالًا يغزوها الهجران،

إنها أصعب المصائب وأقسى الحقائق!

إنه الموت والرحيل!

طريقٌ يعيشه الإنسان ويَعْبر فيه، فإما قصير وإما طويل،

تهيأ للرحيل،

احفظ النَّهْجَ والسبيل،

وسِر وقرآنَ الله الدليل، قبل أنْ تَغْرب شمس الأصيل،

ولم يَعُدْ أمامك أيُّ بديل، سوى لقاء الله العظيم الجليل،

فهل أنت جاهز لهذا الغياب الأبديّ؟!

يقول سفيان الثوريّ:

يا نفسُ توبي فإن الموتَ قد حانا واعصِ الهوى فالهوى مازال فَتَّانا

في كلِّ يومٍ لنا مَيْتٌ نُشيِّعُهُ ننسى بمصرعهِ آثارَ مَوْتانا

فالرحيل راحةٌ لمن اشتاق وعمل لما بعد الموت،
ولمن تجهّز جيدًا إذا فقد السمعَ والصوت،
وهو حُلم كل من تَمَلَّك قلبَه الحنينُ لله العظيم،
وهو أمنيةٌ للقاءِ الخالق الكريم،
لكنّ راحة الموت لا ينعم بها إلا من استَعَدّ وأعدّ العُدَّة جيدًا للقاء الله، ولمن بذل في سبيله كل غالٍ ونفيس،
ولمن استرخص روحه قربانًا لخالقها ورضاه وغفرانه.

والحياةُ فيضٌ من ذكريات متلاحقة،
وكل إنسانٍ يموت يترك داخلَنا بقعة حزنٍ تلتصق بأرواحنا،
حتى نصل إلى تِلْكَ المرحلة، فلا يمنعها عنا أيُّ شيء،
لأن لحظة الموتِ إذا جاءت ينتهي كلُ شيء، نعم كلُ شيء!
تنقطع الأنفاس، يشيعك الناس، يحملونك على الأكتاف،
يتركونك في قبرك فقد حانَت لحظة الاعتراف.

نُعلِّلُ بالدواءِ إذا مَرِضْنا فهلْ يَشْفَي من الموتِ الدواءُ؟
ونختارُ الطبيبَ فهل طبيبٌ يؤخِّرُ ما يقدِّمُه القضاءُ؟
وما أنفاسُنا إلا حسابٌ ولا حسراتُنا إلا فناءُ

خرج ﷺ إلى تبوك،

وفي ليلة من الليالي نام هو والصحابة،

وكانوا في غزوةٍ في سبيل الله،

قال ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه: قمت في الليل فنظرت إلى فراشِ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فلم أجده في فراشه، فوَضَعْت كَفِّي على فراشه فإذا هو بارد،

وذهبت إلى فراش أبي بكر فلم أجده على فراشه،

فالتفت إلى فراش عمر فما وجدته -وسط الليل-

قال: وإذا بنورٍ في آخر المخيم في طرف المعسكر،

فذهبت إلى ذلك النور، فإذا قبرٌ محفور، والرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد نزل في القبر، وإذا جنازةٌ معروضة،

وإذا ميتٌ قد سُجِّيَ في الأكفان، وأبو بكر وعمر حول الجنازة،

والرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول لأبي بكر وعمر: دَلِّيا لي صاحبكما! فلمَّا أنزلاه أنزله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في القبر،

ثم دَمَعَت عيناه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ثم التفتَ إلى القبلة ورفع يديه،

وقال: «**اللهم إني أمسيت عنه راضٍ فارضَ عنه**».

قلت: من هذا؟

قالوا: هذا أخوك عبد الله ذو البجادين ماتَ في أول الليل،

قال ابن مسعود: فوددت والله أني أنا الميت حين سمعتُ قوله ﷺ: «**اللهم إني أمسيت عنه راضٍ فارض عنه**».

ابن مسعود رضي الله عنه تمنى لو كان هو الميت ليلتها؛

ليحوزَ دعاء الحبيب ﷺ، ولأنه يعلم أنَّ هذه الدنيا مهما عَظُمتْ فهي حقيرة، ومهما طالَت فهي قصيرة.

كم من الناس يرحلون من حولنا ولا تبكي لنا عين ولا يرق لنا قلب!

الموت حينما قبض قريبك وجارك وصديقك فإنما تخطّاك أنت وذهب لغيرك وإن له فينا لرجعة!

فكلُّ باكٍ سيُبكَى وكل مذكورٍ سيُنسَى، وكل ناعٍ سيُنعى..

فتأهب للرحيلِ..

ولا يغريك طولَ الأمل، فالعمر قصير

وليكن شعارك كما قيل:

يـا أيُّهـا الأحبـابُ إنِّـيَ راحـلُ مهمـا يَطُـلْ عمـري فـإنِّيَ فـانِ

نوحُ الحَمامِ على الغصونِ شجاني ورأى العـزولُ صـبابتي فبكـاني

إنَّ الحَمامَ ينوحُ من ألَمِ النَّوى وأنـا أنـوحُ مخافـةَ الـديَّان

أنا لا أُضامُ وفي رِحابِك عِصمَتي أنـا لا أخـافُ وفي حِمـاك أمـاني

جاء رجلٌ إلى عليِّ بن أبى طالب رضي الله عنه وقال له: لقد اشتريت دارًا وأريد أن تكتب لي عقد الشراء، فنظر على رضي الله عنه إلى وجهِ الرجل فوَجَدَ الدنيا قد تربعت على سويداء قلبه، فجعلت بينه وبين نور الله حجابًا مستورًا، فأراد أن يلقنه درسًا يذكره فيه بالله فأمسك بالقلم وكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم؛ أما بعد:

فقد اشترى ميت من ميت دارًا تقع في بلد المذنبين وسكة الغافلين،

لها أربعة حدود:

الأول: ينتهي إلى الموت.

والحد **الثاني**: ينتهي إلى القبر.

والحد **الثالث**: ينتهي إلى الآخرة.

والحد **الرابع**: إما إلى الجنة وإما إلى النار!

فلما ناول علي رضي الله عنه الرجل ما كتب؛ قال الرجل: ما هذا يا أمير المؤمنين؟! جئتك تكتب لي عقد شراء دار، فكتبت لي عقد شراء مقبرة، فقال له علي رضي الله عنه:

النفس تبكي على الدنيا وقد عَلِمَتْ ... أنَّ السلامة فيها تَرْكُ ما فيها

لا دارَ للمرءِ بعد الموتِ يسكُنُها ... إلا الّتي كانَ قبلَ الموتِ يبنيها

فإنْ بناها بخيرٍ طابَ مسكَنُه ... وإنْ بناها بشرٍّ خاب بانيها

أينَ الملوكُ التي كانتْ مُسلْطَنَةً ... حتى سقاها بكأسِ الموت ساقيها

أموالُنا لذوي الميراثِ نجمَعُها ... ودورُنا لخرابِ الدهرِ نبنيها

تلك حدودنا.. مهما علونا وكبرنا، مهما تكبرنا وتجبرنا.. تلك حدودنا!

سُئِلَ نوح عليه السلام بعدما لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا وبقي بعد الطوفان خمسين ومائتي سنة،كيف وجدت الدنيا؟

قال: كدارٍ لها بابان، دخلتُ من أحدهما، وخرجت من الآخر!

قال ابن الجوزى رحمه الله: (كلامك مكتوب، وقولك محسوب، وأنت يا هذا مطلوب، ولك ذنوب، وما تتوب، وشمس الحياة قد أخذت في الغروب، فما أقسى قلبك بين القلوب!)

هكذا هي الحياة..

اليوم يُقال لك: مُباركٌ ما أتاك،

وغدًا يُقال لك: أحسنَ اللهُ عزاك!

اليوم نَقْقِد وغدًا نُفْقَد

اليوم نَدْفِن وغدًا نُدفَن

اليوم نبكي وغدًا نُبكَى

اليوم نَحمِل وغدًا نُحمَل

تأمَّل معي الخليل عليه وعلى نبينا أفضلُ صلاةٍ وسلام وهو يدعو الله ويبتهل إليه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: 83، 84]، قال أهلُ التفسير: إنَّ سؤالُ الخليل أنْ يجعل اللهُ له في الناس الثناءَ الحسَن والذِّكر الطيِّب.

وقد أعطى الله الخليل إبراهيم عليه السلام مراده وحقَّقَ له دعوته؛ فجميعُ الأمم تثني عليه، وجَعَلَ الثناء عليه في الصلاة الإبراهيمية عَقِب كل صلاة يصليها المسلم..

وهذا الحبيب ﷺ يمتنُّ اللهُ عليه بقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: 4]، فلا يقول المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله إلا قال أشهد أنَّ محمدًا رسول الله.

وسيبقَى ذكره في حياتنا خالدًا حتى يرث اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

إننا نرى عيانًا مَن يموتُ، وتحزن الناسُ على فراقه؛ لأنه كان نجمًا وضّاءًا في الحق، وفي المقابل نرى مَن يموت وتحمد الناسُ اللهَ على موته..

كم ماتَ قومٌ وما ماتَتْ مَكارِمُهمْ! وعاش قومٌ وهمْ في النَّاس أمواتُ!

تقول عائشة رضي الله عنها -والحديث في صحيح البخاري رحمه الله-: "ما غِرْتُ على أحدٍ مِن نساء النبيِّ ﷺ ما غرتُ على خديجةَ، وما رأيتُها قطُّ، ولكن كان يُكثِر ذِكرها، وربما ذبح الشاةَ ثمَّ يقطعها أعضاءً، ثمَّ يبعثها في صدائق خديجة، فربَّما قلتُ له: كأنَّه لم يكن في الدنيا امرَأةٌ إلاَّ خديجة، فيقول: «**إنها كانت وكانَت، وكان لي مِنها ولدٌ**» [متفق على صحته]، هكذا بقِي ذِكرُ خديجة خالدًا بعد رحيلها من هذه الدنيا..

إنها عملت إنجازًا قبل الرحيل..

إنها ثابَرَت واجتهدت وكافحت وعملت..

إنها ضَحَّتْ وصَبَرَتْ فاستحقَّتْ هذا الثناءَ الجميل من الحبيب ﷺ، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: 96]؛ أي: سيُبقِي لهم ذِكرَهم الطيِّب الجميل الفواح وثناءَ الناس عليهم.

حاوِلْ أن تصنَع لك مجدًا فدنياك هذه لن تتكَرَّر، وحياتك لن تعود، عامل الناسَ بطيبِ الخُلُق، وجمال التواضع، ونقاء النفس، وطهارة المشاعر وحسن العشرة، وحلاوة الكلام؛ فمن كانت هذه أخلاقه ارْتَقى في رتُبِ الصلاح، ودرجات أهل الفلاح، وانظر إلى حاتمٍ الطائيِّ الذي جعله كرمُه مثالًا خالدًا في العالمين رغْم أنه لم يدرك الإسلام؛ لكن بقي كنارٍ على عَلَمٍ في الجود!

وهنا عليك أن تَقِفَ على كلام نفيس جِدًّا لابن الجوزي، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "رأيت أناسًا يصومون ويقومون ويذكرون الله كثيرًا؛ لكن الناسَ لا تحبُّهم، ورأيتُ آخرين ليسَت لديهم كثيرُ عباداتٍ؛ لكنَّ قلوب الناس قد أجمعَت بالثناء عليهم، قال: فتأمَّلتُ في ذلك فوجدتُه صفاءَ السريرة".

فعش بصفاءِ السريرة، وأخلِصْ عَمَلَك لله تعالى، وسامِح المسلمين، ولا تحمل حِقْدًا ولا غِلًّا ولا حسدًا على أحد، فعمرك قصير ودنياك آفلة!

دعْ أثرَكَ يرسمُ عنك أجمل الكلمات بعد مغادرةِ هذه الدنيا، قد لا تعني شيئا لمن هم في أدغال أفريقيا أو الصين أو القطب المتجمد الشمالي؛ ولكنك في دائرةِ معارفك قد تكون قمرًا أو شمسًا، وقد تكون لأهلك كلَّ شيء، وقد تكون كبيرًا في أعين أصدقائك أو قومِك أو شعبك أو أُمَّتِك، فمتى ما كنت في عينِ أحدهم شيئًا كبيرًا فَقَدِّم له كل جديد وفريد حتى تصنع أثرك فيه!

ولعلك تَعجَبُ أن هناك مَنْ هو حولك يبكي على فراقِكَ بقدر صلاحك،

فهل ورد عليك الأثر الفواح الزاهي أنَّ العبد الصالح إذا مات بكَت عليه الأرض، بَكى عليه موضِعُ سجوده، وبَكى عليه موضع قَدمه الذي كان يَمشي به على الأرض؟! وهذا كتاب الله تعالى عندما حكى عن هلاك قوم فرعون قال: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: 29]؛ فانظر كيف أنَّ الأرض لم تتأسَّفْ لفراقهم وما بَكَتْ أو حَزِنَتْ عليهم!

لَعَمْرُكَ مَا وَارَى التُّرَابُ فِعَالَهُ وَلَكِنَّهُ وَارَى ثيابًا وَأَعْظُمًا

لقد كان نجمًا يضيء للأمة، ومَعْلَمَ صِدْق في هذه الحياة، وكان قدوةً لمن حوله، وكان داعية خيرٍ وبرٍّ ونَفْعٍ وصلاحٍ وإصلاحٍ، فهنيئًا له ذكرُه المنشور وعملُه المبرور!

رَدَّتْ صَنَائِعُهُ عَلَيْهِ حَيَاتَهُ فَكَأَنَّهُ مِنْ نَشْرِهَا مَنْشُورُ

وإذا أكرمك الله بصلاح أولادك وذريتك فاعلم أن هذا من عاجِلِ النَّعيم الذي غمرك الله به، وثِق أنه من التوفيق الذي يَهبُه الله لِمَن يشاء من عباده، واسمع دعاء الصالحين مولاهم الجليل وهم يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ .

إنَّ أولادَك وذريتك بعد رحيلك هم صورةٌ طبق الأصل لك بعد رحيلِكَ، فلا بُدَّ أن تسعى لتربيتهم وإصلاحهم، واستَعِن بالدعاء فقد أخبرنا القرآن عن طَلَبِ أنبياء الله المكرمين، من الله ربِّ العالمين، أن يرزقهم الأبناءَ الصالحين الذين يكونون القدوةَ المُثْلى لِمَن بعدهم، فهذا إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام يسألُ ربَّه الذريَّةَ الصالحة قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: 100]

وهذا زكريا عليه السلام يُناجي ربَّه بكل ضراعة وصِدْقٍ وإلحاح، يسأله

الولدَ؛ ليكونَ وارثًا للنبوَّة مِن بعده قائلًا: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: 6]، وقبل ذلك تأمَّل معي قليلًا في دعاء الأبوين آدم وحواء عليهما السلام وتضرعهما لله تعالى، فقد ذكر الله أنَّهما قالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٨٩﴾ [الأعراف: 189] وفي هذا دليل أنَّ مِنْ أجمل الهبات التي يهبها الله لعباده الصالحين أن يرزقهم ذرية صالحة، كيف لا، و«**إذا ماتَ ابن آدم انْقَطعَ عَمَلُه إلَّا مِنْ ثَلاث: صَدَقَةٍ جارِيَةٍ، أوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٍ صالِحٍ يَدْعُو له**» [صحيح مسلم: 1631]؟!

الدنيا دار ممر، لا مقر وهي مزرعة للآخرة، ولا بد لنا أن نرحل منها طال الزمنُ أم قَصُر، حيث يقول الله تعالى مخاطبًا عباده حاكمًا عليهم بالفناء: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾؛ أي: كل من على وجه هذه الأرض من إنسٍ وجنٍّ ودواب وسائر المخلوقات في هذه الأرض يفنى ويموت، ويبقى الحي وحده الذي لا يموت ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾، الموتُ كأسٌ لا بُدَّ لكلِّ نفسٍ أن تشربه، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: 185] تتذوقه لا محالة.

وكان النبي ﷺ يَحُثُّ على الإكثار من ذكره، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ» [سنن ابن ماجه: 4258]، يَعْنِي: الْمَوْتَ.

والعيشُ في هذه الدنيا فرصة لا تُعَوَّض؛ لأن ما بعدها إما نجاحٌ لا خسارةَ بعدها، وإما خسارةٌ لا نجاحَ بعدها، والمسلِمُ يتزَوَّد على الدوام من العملِ الصالح؛ ليجد ثوابه عند الله يوم أن يلقـــاه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف: 107و108].

قبل أن تأتيَ ساعةُ الرحيلِ والندم على ما فات، عندها يَتَمَنَّى الواحد منا أن لو بَقِيَ لحظاتٍ، على هذه الدنيا ليعمرها بالطاعات والصالحات، وقد فاتَ منه ما فات، ولكن هيهات هيهات، ولات ساعة مندم ولات، اسمع نداء الله وعِشْ على الدوام مع هذه الآيات، واجعلها لوحة في بيتك وسيارتك ومكان عملك فهي خلاصة هذه الحياة، يقول عز من قائل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون: 99و100]

وقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على جنازة فقال كلمتين ثم نزل عن المنبر:

(كفى بالموت واعظًا).

كم تمتلئ صفحات المواقع اليوم بأخبارِ الموتى!

وتضج برسائل التعزية،

هذا مات في حادث سير، وذاك مات فجأة،

شباب في مُقتبل العُمر يرحلون.

قال ابن الجوزى رحمه الله (كيف يَفْرَح بالدنيا مَنْ يومُه يَهْدِم شهرَه، وشَهْرُه يَهْدم سنتَه، وسنتُه تَهدم عُمُره؟! كيف يلهو من يقوده عُمُرُه إلى أجلِه وحياتُه إلى موته؟!)

فالعُمر يمضي..

وشمس الحياة تَأذنُ بالرحيل..

فأين هدفك؟ وأين غايتك؟

تُفنى الأعمار دون أن يَقِفَ المرء مع نفسه وقفةً صادقةً يسألها: أين؟؟ ولماذا؟؟

يجب أن يُحَدِّدَ اتجاهه في هذه الحياة دون أنْ يربط عمره بـ "سوف ولعل وعسى"

كان أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ حازمًا مَعَ نَفْسِه، قد علَّق سوطًا في بيته يُخَوِّف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومي فوالله لأزحفن بِكِ زَحْفًا إلى الله حتى يكون الكَلَلُ مِنْكِ لا مِنِّي؛ فإذا فتر وكَلَّ وتعب تَناول سوطه وضَرَبَ ساقه، ثم قال: أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يستأثروا به دوننا؟! كلا! والله لنزاحمنَّهم عليه زِحامًا حتى يعلموا أنهم خَلَّفوا وراءهم رجالًا..

اليَومَ صبرٌ واحتمالُ مشقَّةٍ وغدًا بجنَّاتِ الخلودِ مَقِيلُ

فإياك أن تكون مِمَّن لا همَّ له في هذه الدنيا إلا الأكل والشرب والنوم!

لا غاية لهم ولا هدف!

فحين وصف الله الكافرين قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد: 12].

فحاذر أن تكون ممن قال فيهم الشاعر:

كذاك على الأرض تعيش البهائم نهارك هائم وليلك نائم

فإن كان اليومُ تعبًا غدًا سيكون راحةً،

وبقدْرِ ما تتعبُ اليوم بقدْرِ ما سترتاح غدًا،

فارفع مقامك عند الله في الدنيا؛ ليرفع مقامك عنده يوم القيامة، واهجر الوسادة؛ لتكون لك السيادة، وقُمِ الليالي، لترتقي المعالي.

قال ابن القيم:"من أرادَ من العُمّال أن يعرف قدره عند السلطان، فَلْينْظُر ماذا يولّيه من العمل، وبأيِّ شُغْل يشغله!".

لما نزل الموت بالعابد الزاهد عبد الله بن إدريس اشتَدَّ عليه الكرب، فلما أخذ يَشْهَقُ بكتِ ابنته، فقال: يا بنيتي! لا تبكي فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة.. كلها لأجلِ هذا المصرع!

وها هو هارون الرشيد لما حضرته الوفاة وعاين السكرات صاحَ بقواده وحُجَّابه اجمعوا جيوشي فجاؤوا بهم بسيوفهم ودروعهم لا يكاد يُحصِي عددهم إلا الله كلهم تحتَ قيادته وأمْرِه، فلما رآهم بكى ثم قال:

يا من لا يزولُ ملكُه! ارحم من قد زال ملكُه! ثم لم يزلْ يبكي

حتى مات

أما عبد الملك بن مروان فإنه لما نزَلَ به الموت جعل يتَغشّاه الكَرْب، ويضيق عليه النَّفَس، فأمر بنوافذ غرفته ففتحت، فالتفت فرأى غسَّالًا فقيرًا في دكانه، فبكى عبد الملك ثم قال: يا ليتني كنت غسالًا! يا ليتني كنت نجارًا! يا ليتني كنت حمّالًا! يا ليتني لم أَلِ من أمر المؤمنين شيئًا ثم مات.

مرَّ عمر بن عبد العزيز على مَقْبرة فنزل عن بغلته، فقال لمن عنده: انتظروا، فَذَهَب إلى المقبرة وأخذ ينظر إلى القبور

قال عمر وهو ينظر إلى المقابر: أيها الموت! ماذا فعلت بالأحبة؟

أيها الموت! ماذا صنعت بهم؟ فلم يجبه أحد،

ثم خرَّ على ركبتيه وهو يبكي ويُردِّدُ شعرًا فيقول:

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهَا ... فَأَيْنَ الْمُعَظَّمُ وَالْمُحْتَقَرْ

تَفَانَوْا جَمِيعًا فَمَا مُخْبِرٌ ... وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الْخَبَرْ

فَيَاسَائِلِي عَنْ أُنَاسٍ مَضَوْا ... أَمَا لَكَ فِي مَا مَضَى مُعْتَبَرْ؟!

فإذا به يبكي بكاءً مُرًّا حتى اجتمع الناس حوله، حتى هدأ رَحِمَهُ اللَّهُ.

متى آخر مرة زرت فيها المقبرة في غير جنازة؟

أليست منازلنا وغدًا سَنَسْكُنها؟

اذهب إليها وكلمها!

هل يجيبُك أحدٌ؟ سلها هل يردُّ عليك أحد؟

(قبورنا تُبنى ونُحن ما تُبنا، يا ليتنا تُبنا من قبل أن تُبنى)

جاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم فقال: أين العُمران؟!

فأخذ إبراهيم بيده حتى وَقَفَ به على القبور فقال له: هنا العمران!

فالقبر أحداثُ لن يرويها لك أحد، ولن ترويها لأحد.

ينبغي على المسلم أن يَعْمُرَ أوقاته وساعات عُمُرِه ما دام ممتَّعًا يعيش في دنياه فيما يُقرِّبه من الله ﷻ، ويعينُه على إصلاحِ نفسه وأهله وأمته ومعاده، وأن يتنبَّه لتضييع حياته فيما لا ينفعه لا في دنياه ولا في آخرته، حتى ولو كان في آخرِ لحظة من حياتِه وآخر نفَس من عمره، عن أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»** [مسند أحمد: 12981]

كم سَمِعْتَ آياتٍ من كتاب اللهِ وأحاديثَ من سنة رسول الله ﷺ

تحثُّكَ على اغتنام الأنفاس واللحظات والساعات فيما يرجع عليك بالنفع والصلاح والخيرات.

قال الصحابيُّ الجليلُ عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: ما نَدِمْت على شيء ندمي على يوم غربت شمسُه، نقص فيه أجلي، ولم يزد فيه عملي.

اعمل قبل رحيلك خبيئةً من عمل، عمل تتفنَّن فيه، واحرص على طاعة السِّرِّ والخفاء بعيدًا عن أعين الناس، كالصلاة في آخِر اللَّيل والناس هُجُوع، وكصدقة السِّر حيث تنفق فلا تعلم شمالك ما تقدِّمُ يمينُك، أو تتعاهد أسرة فقيرة نازحة مكلومة بائسة تسعدهم وتكفلهم وتعطيهم مما أعطاك الله، وكالدعاء بظهر الغَيب والتَّلذُّذ بمناجاة الله حيث تخلو بربك مخبِتًا منيبًا داعيًا، وكمَن ذَكَر الله خاليًا ففاضتْ عيناه من خشية الله، وقد نَصحَنَا النبيُّ ﷺ بالخبيئة الصالحة؛ وهي العمل الصالح الخفي الذي لا يَعلم به أحدٌ إلاَّ الله - تعالى - وحده بعيدًا عن أعين الناس فقال: «**مَن استطاع منكم أنْ يكونَ له خَبْءٌ مِن عملٍ صالحٍ فَلْيفعلْ**»؛ رواه أحمد في الزهد، وصحَّحه الألباني.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه كان يذهب إلى بيت امرأةٍ عجوزٍ

كفيفةِ البصر، فيَكنس بيتَها، ويحلب شاتَها، فَلَحِقه ذاتَ يوم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلمَّا خَرَجَ سأل العجوز عنه، فقالت: يأتيني كلَّ يوم فيعمل كذا وكذا، فبكى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: ويحكَ يا عمر! أعثرات أبي بكرٍ تتبِّع يا عمر؟!

إنها خبيئةٌ صالحةٌ قبل الرحيل، وعملٌ من الخير يرجو أن يَجِدَ ثوابه بين يدي مولاه يوم أن يقف بين يديه، ومِثْلُ ما حَصَل للخليفة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَصَلَ لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث كان عمر يذهب لبيوت الأَراملِ، فيقضي حوائجَهم، فَلَحِقه طلحةُ بن عُبيد الله، فدخل بعدَه تلك البيوتَ، فوجدهم أراملَ لا يعلمون أنَّه عمر، فقال طلحة: أعثرات عمر تتبِّع يا طلحة؟!

إنها أعمال صالحة قبل الرحيل، فماذا قَدَمَّنا أنا وأنت؟!

تعالَ بنا ننظرْ صورةً أخرى تشابه الصورتين الأوليين! فهذا عليُّ بن الحسين كان يحمِل الخبزَ باللَّيل على ظهره يتبع به المساكينَ في الظُّلمة، ويقول: "الصدقة في سواد اللَّيل تطفئ غضب الرَّب"، وذُكر أيضًا أنَّ ناسًا من أهل المدينة يَعيشون لا يَدرون مِن أين كان معاشُهم، فلمَّا مات عليُّ بن الحسين، فَقَدوا ذلك الذي كانوا يُؤتَوْن باللَّيل.

لا تتأخر عن السير في رِكابهم والتَّشَبُّه بهم والانضمام إلى دربهم، وأكثِرْ من الدعاء كي تثبت على الطريق المستقيم وتسلك سبيل الهداية وتذكَّر قول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: 97].

اسمع نداء الله إليك بقلبك!

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس: 7-8].

هل قرأت هذه الآية؟

هل تدبرتها؟

أين أنت منها؟

من رضي بالدنيا وفرح بها واطمأن بها ولها محالٌ عليه أن يرجوا لقاء الله!

لا يمكن أن يُفَكِّر في لقاء الله!

لماذا؟!

لأنه عمَّرَ دنياه وخرَّب أخراه!

فهو إذنْ يكره أن ينتقل من العمران إلى الخراب.

هل يقبل أحد منا أن يترك قصره الفاره وحديقته الوارفة ليسكن الصحراء؟!

مُستحَيل!

يقول النبي ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما والحديث في البخاري: «**يا ابنَ عُمَر! كُنْ في الدُّنْيا كأَنَّكَ غَرِيبٌ أوْ عابِرُ سَبيل**» [صحيح البخاري: 6416].

وكان ابن عمر رضي الله عنه يقول: "إذا أمسيت فلا تَنْتَظِر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذْ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك".

إنَّ للهِ عبـــــادًا فُطَنَـــا طَلَّقُـوا الـدنيا وخـافوا الفِتَنَـا
نَظَـرُوا فيهـا فلمّـا عَلِمـوا أنّهـا ليـستْ لحـيٍّ وطنـا
جعلوهـا لُجَّـةً واتخـذوا صـالحَ الأعمـالِ فيهـا سُـفُنا

إن العاقل اللبيب، الذكي الأريب، هو الذي يَعْرِفُ حقيقةَ هذه الدنيا، فيجعل منها مزرعة للآخرة، ويستغلها في طاعة الله تعالى!

قال علي بن طالب رضي الله عنه: "الدنيا دارُ صِدْقٍ لمن صَدَقَهَا، ودارُ غنًى لمن تزوَّد منها، ودارُ نعيم لمن فَهِمَ عنها، فهيَ مهبطُ وحي الله، وفيها مُصَلّى أنبيائه، وهى متجر أوليائه ربِحُوا فيها الرحمة، وكَسِبوا فيها الجنة!"

فكيف بمن غفل عن الآخرة؟!

ونسي سكرات الموت!

ونسي القبر!

ونسي السؤال!

ونسي العرض على الله!

ونسى الوقوف بين يدي ملك الموت!

ونسي الميزان!

ونسي الصحف!

ونسي أهوال يوم القيامة!

ونسي الجنة والنار!

كونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا!

يقول سلمان الفارسي: أضحكني ثلاث: مؤملٌ للدنيا والموتُ يطلبُه، وغافلٌ لا يُغْفَل عنه، وضاحكٌ بملء فيه لا يدري آلله راضٍ عنه أم ساخط، وأبكاني ثلاث: فراقُ الأحبة، محمدٍ وصحبِه، وهول المطلع يوم القيامة، ووقوفي بين يدي الله لا أدري آلله راضٍ عني أم ساخط!

فَقُلْ للَّذي قدْ غرَّهُ طوْل عُمْرهِ وما قدْ حواهُ مِنْ زخارِف تخْدعُ

أَفِقْ وانظُرِ الدُّنيا بعينٍ بصيرةٍ تَجِدْ كُلَّ ما فيها ودائعَ تُرْجَعُ

إذا أظلم عليك الليل تَذَكَّر ظلمة القبور، إذا دخلت فراشك فذكِّر نفسك بِتِلْك الحفرة المظلمة، إذا استيقظت من نومِك تذكَّر القيام للبعث والنشور بين يدي رب العزة والجلال!

عمر بن عبد العزيز يَبْكي ذات يوم فتبكي زوجته ويبكي أولاده، لماذا يا عمر؟! قال: تذكرتُ منصرفَ الناس يوم القيامة؛ فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير

ها هي أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها والنبي ﷺ نائمٌ في حِجرها تَذْكُرُ الآخرة فتبكي فتسقطُ دمعاتٌ على جبين النبي ﷺ فيقول: «**يا عائشة! ما الأمر؟**» قالت: يا رسول الله! تذكرت يوم القيامة، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة يا رسول الله!

فقال ﷺ في ثلاثٍ مواطنٍ «**والذي نفسي بيده لا يذكرُ الإنسانُ إلا نفسَه: عند الصراط حتى ينظرَ العبدُ أيعبرُ الصراط؟ أم يسقط في النار؟ وعند الميزان حتى ينظرَ العبدُ أيَخُفُّ ميزانه؟ أم يثقل؟ وعند تطاير الصحف حتى ينظرَ العبد أيأخذ كتابه بيمينه؟ أم بشماله؟**».

من كانت الآخرة همَّه فإنه لا يمر به يوم إلا ويذكر مصيره وآخرته

من كانت الآخرة همَّه فإنه لا يرى شيئًا في الدنيا إلا وربطه بالآخرة

إن صَعِد جسرًا في الدنيا تذكَّر الصراط يوم القيامة، وإن لَبِسَ ثوبًا تذكَّر ثياب أهل الجنة وأهل النار وإن شربَ شرابًا تذَكَّر شراب أهل النار وأهل الجنة.

أُتِيَ الحسن بكوزٍ من ماء ليفطر عليه، فلما أدناه إلى فيه بكى، وقال: تذكرتُ أمنية أهل النار حين يقولوا: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ وذكرتُ ما أجيبوا به: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

علينا أن نَفِرَّ إلى الله قبل رحيلنا، علينا أن نعزِمَ على التوجه إليه قبل مداهمة الأجل!

يا نفس قد أزف الرحيل ... وأظلَك الخَطْبُ الجليلُ

فتأهبي يا نفسٌ لا ... يلعب بكِ الأمل الطويلُ

فلتنزلن بمنزلٍ ... ينسى الخليل به الخليلُ

وليركبن عليك فيه ... من الثرى ثُقِلُ ثقيلُ

قرن الفناء بنا جميعًا ... فلا يبقى العزيز ولا الذليلُ

فلنعد جميعا إلى الله!

يا مَنِ ابتعدتَ عن الله!

يا من بارز الله بالذنوب!

يا من وقعت في كبائر الإثم!

يا من ضيَّع الصلاة!

يا من امتنع عن الزكاة!

يا من عقَّ الوالدين!

عد إلى الله واطرق بابه قبل رحيلك من هذه الدنيا واسمع نداء الله لك: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: 53].

يا منقذ الغرقى! ويا منجي الهلكى! ويا سامع كلِّ نجوى! يا عظيم الإحسان! يا دائم المعروف! وفِّقْنا لعودة إليك قبل الرحيل!

قبل أن تعصيه

تعصي الإله وأنت تُظْهِر حُبَّهُ هذا لعُمْري في القياس بديعُ
لو كان حُبُّكَ صادقًا لأطعْتَهُ إنَّ المحبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مطيعُ

أتى رجلٌ إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: يا أبا إسحاق! إني مُسْرِفٌ على نفسي، فاعرِضْ عليَّ ما يكون به زجرٌ ووعظٌ لها!

فقال: إن قبلتَ مني خمسَ خصال وقَدِرْتَ عليها لم تَضُرَّكَ المعصيةُ ما حييت!

قال الرجل: هاتِ يا أبا إسحاق!

قال: أما الأولى فإذا أردتَ أن تعصيَ الله تعالى فلا تأكلْ مِن رزقه!

قال الرجل: فمن أين آكلُ إذًا وكلُّ ما على الأرض مِن رزقِ الله تعالى؟!

قال: يا هذا! أفيحسنُ بك أن تأكلَ مِن رزقهِ وتعصِيَهُ أيضًا؟!

قال الرجل: لا والله، هاتِ الثانية!

قال: وإذا أردتَ أن تعصِيَهُ على أرضٍ فلا تسكنْ شيئًا مِن بلاده!

قال الرجل: هذه أعظم، فأينَ أسكُنُ والأرضُ والبلادُ كلُّها لله تعالى؟!

قال: يا هذا! أفيحسُنُ بك أن تأكلَ مِن رزقهِ وتسكن أرضَهُ، ثم أنت بعد ذلك تعصيه؟!

قال الرجل: لا والله! هاتِ الثالثة.

قال: وإذا أردتَ أن تعصيَهُ وأنت تأكلُ مِن رزقهِ وتسكنُ بلادَهُ؛ فانظر مكانًا لا يراك فيه، فاعصِه فيه!

قال الرجل: يا إبراهيم! ما هذا؟ وكيف يكونُ ذلك والله مطلعٌ على السرائرِ، ولا تخفى عليه خافية؟!

قال: يا هذا! أفيحسنُ بكَ أن تأكلَ مِن رزقهِ، وتسكنَ أرضهُ، ثم أنتَ تعصيهُ وهو يراك، ويعلمُ ما تجاهرُ به!

قال الرجل: لا والله..، هاتِ الرابعةَ.

قال: فإذا جاء ملك الموت ليقبض روحكَ وأنتَ على غير ما يرضى الله تعالى، فقلْ له: أخِّرني حتّى أتوبَ إلى الله تعالى توبةً نصوحًا، وأعملَ صالحًا.

قال الرجل: إنّ مَلَكَ الموتِ إن جاءني ليقبضَ رُوحي لا يقبلُ مني ما تقول!

قال: يا هذا! إنك إذا لم تقدر أن تدفعَ عنك الموتَ لتتوبَ، وتعلمُ أنه إذا جاء لم يكن له تأخير، فكيف تتجرّأُ على الله بأنواعِ المعاصي، ولا تكون على استعدادٍ دائمٍ للرحيل!

قال الرجل: هاتِ الخامسة.

قال: إذا قُبِضْتَ على المعصية، وأمر الله تعالى بك إلى النار، وجاء الزبانية ليأخذوك إلى النار، فلا تذهبْ معهم!

قال الرجل: إنهم ملائكة أقوياء أشداء، ولن يَدَعُوني أو يَقْبلوا مني!

قال إبراهيم: فكيف ترجو النجاة إذًا وأنت على هذه الحال من المعاصي والغفلة؟!

قال الرجل: يا إبراهيم حسبي.. حسبي.. أستغفر الله العظيم وأتوب إليه..

لو أن الله خلقك أعمى هل تعص الله بنظرك؟

ولو أن الله خلقك أصم هل تعص الله بأذنك؟

لو أن الله خلقك أبكم هل تعص الله بلسانك؟

ولو أن الله خلقك مشلولًا هل تعص الله بقدَمِك؟

إذًا.... أخي إنما أنت تعص الله سبحانه وتعالى بنعم الله، فهل يستحق المنعم هذا الجزاء؟!

ولو أنك.... أخي! تفكرت في لذة أمسِ أينَ ذهبت؟ لقد رَحلَت وأبقت ندمًا.

ولو أنك تفكرت أيضًا أين شهوة النفس؟ كم نكَّستْ رأسًا وأزلَّت قدمًا!

قال الشاعر:

أيها اللاهي بلا أدنى وجلْ ... اتقِّ الله الذي عز وجلَّ

كمْ أطعْتَ النفس إذْ أغويتَها ... وعلى فِعْل الخَنا ربَّيتَها

كم ليالٍ لاهيًا أنْهيتَها ... إنَّ أهْنى عيشةٍ قضيتَها

ذهبتْ لذَّاتُها والإثمُ حلَّ

وقفة محاسبة

فـــؤادي يـــشتكي ذنبـــي ويـــشكو منـــك مـــا كـــانَ
أعيـــدي للحمـــى قلبـــي وعـــودي عـــودِيَ الآنَ
تجـــاذبني هـــوىً وهـــدىً وقلبـــي بعـــدُ مـــا لانَ
كـــأني مـــا ســـمعْتُ ومـــا رأيـــتُ الهـــدْيَ إذْ بـــانَ

أيا نفسي!

بم أنادي عليكِ وقد وصلتِ لأبعدِ المراحل؟! فصرتي صماءَ عمياءَ

لا تري فيما يصير بك عبرةً ولا تتعظين مما يمرُّ بكِ!

ألا تسمعين فتعتبري!

أما آنَتْ تلك اللحظةُ التي يخشى قلبُكِ عند سماع الآيات!

حين تسجدي وتبكي

ما أبعدَ البكاءَ عنكِ من خشية الله!

وما أقربه لكِ حين تتألمي أو تصيبُكِ شوكةٌ!

لم تؤثِّرْ بكِ شوكة المعاصي فتعتصري ألمًا وبكاءً!

وأثَّرتْ بكِ آلام الدنيا! لعلكِ تعودي فما تعودي!

الدنيا إذا كَسَتْ أوْكَسَتْ، وإذا حلَّتْ أوْحَلَتْ، وإذا أينعَتْ نَعَتْ

كم من قبور تُبْنى ونحن ما تُبنا!

وكم من مريض عُدْنا ونحن ما عُدْنا!

أيا نفسي!

أين أجدُكِ حين أبحثُ عنكِ؟!

أأجدكِ في مجالس الذكر والقرآن والثلث الأخير من الليل تقومي وتصلي وتسكبي العَبَرات؟

أم أجدكِ في وحشةٍ وعذابٍ وبُعْدٍ عن ربّ البريَّات؟

سمعتِ فلم تستجيبي!

بَصُرْتِ فلم تتعظي!

أُصِبتِ فلم تتأثري!

ما أقساكِ! وما للمعصية أدناكِ!

ألا تُفيقين من سكرة المعاصي! فقد طالت سكرتك، وأحاطت بكِ خطيئتك!

ويحكِ نفسي!

واهًا لريح التوبة التي تُفيق سكرتَك، وتُنزِل دمعتَك فتعلو بكِ نحو الجنة طاعتُك وخشيتك!

واهًا لِأنْ ترضي ربَّكِ فتنجيني من النيران!

واهًا لِأنْ تسقين من ارتوائك بالقرآن!

واهًا لِأن تُقيمي الليلَ تسجدي وتركعي وتتذللي وتنيبي لله، وحدكِ لا يراكِ سواه!

حين يخلو كلُّ حبيبٍ بحبيبه ويغفل الغافلون ويَلْها اللاهون!

واهًا لِأنْ تقومي من سُباتك العميق عن التوبة، وتهجري الغفلة، وتعلني الإنابة والأوبة!.

واهًا لقلبٍ يملأُه حبّ الله، فيستقي ويُروَى بعد طيلة ما عاناه، مِنْ حبِّ مَنْ سواه، وذلك الأمل لن ينقطع بإذن الله!

فلتظلي يا نفسي! تدعين وتناجين ربّكِ أن يبلغك رضاه، ويكفيكِ سخطه، وأن يرزقكِ حبه، فهو الله القادر البارئ الرحيم الرحمن!

أسِواكَ يغفرُ أو يُجيرُ مجندلًا صرعى الهوى والذَّنْبِ والغَفلاتِ!
أسواكَ يرحمُ من شقى بذنوبهِ ألقاه موج البُعد في الآهاتِ!
سأظلُ أقرعُ بابَ ربي عَلَّهُ يعفو عن الزّلاتِ والعَثَراتِ
إني لملتزمٌ بأعتابِ الرَّجا والخوفُ يسبِقُني إلى الخَلَواتِ

لا تهجره

(النَّاسُ مَوتَىٰ وَأَهَلُ القُرآنِ أَحيَّاءُ)

إنه كتابُ الله!.

إنه الوحيُّ الذي أنزل على النبي محمد ﷺ،

إنه النور والسرور، إنه الخير الرشيد،

والحصن المنيع، والقول السديد،

وهو الحامي والحافظ بإذن الله.

كم مرَّةً تقرأ القرآن في اليوم؟

وكم ختمةً ختمت كتاب الله قراءة وترتيلًا في حياتك؟

كم سورةً تحفظُ منه؟

وكم سورةً تعرفُ تفسيرها ومعناها ومقصدها؟

أين أنت من كتاب الله سبحانه وكلامِه المُنزّل من فوق سبع سماوات لنا؟

إنه أعظم كتابٍ نزل على البشرية منذ خلق الله البسيطة!

وهو الدستور والمنهج، والحقُّ والصِّدْق،

فيه كلامٌ يسلبُ القلوب إيمانًا وتسبيحًا، فيترك الفؤاد مرتاحًا

مُريحًا!

وهو الضوء الذي ينير ما بين المشرق والمغرب، وما بين السماوات والأرض.

إنه الكتاب الذي سالت من أجله دماء، ورفع المسلمين إلى العلياء،

به تهتزُّ الأسماع والقلوب، وفي آياته تفريج الهمِّ والكروب، إنه كلام علام الغيوب.

هو جنةٌ ورِفعة، وهداية وشموخ،

وهو السبيل إلى السعادة في الدنيا والآخرة،

وهو الأمان في الخوف، والرضا في الهم،

والاطمئنان في الحيرة، إنه مقياس حبك لله وحب الله لك.

نوِّر جبينك في هدى القرآن واقطِفْ حصادك بَعْدَ طولِ نِضالِ
واسلُكْ دروبَ العارفين بِهِمَّةٍ والزمْ كتابَ الله غيرَ مُبالِ
فهو المعينُ على الشدائدِ وطأةً وهو المهيمنُ فوق كل مجالِ
وهو الشفيعُ على الخلائقِ شاهدٌ في موقفٍ يُنجِي من الأهوالِ

فما أجمل أن تتطهر من الآثام والخطايا،
وتُمسِك المصحفَ بين يديك، تسرحُ في خيالك، تتدبرُ آياته،
تعيشَ كلمات اللهِ قولًا وفعلًا،
تسيرُ نحو النور، تقرأ السُّورَ العظيمة، وتستمع لآياته الكريمة،
بها الثواب والعقاب، والخوف والرجاء، والرضا والقبول،
بها طريق الوصول، ومنهاج الإنسان في كل الأزمان.
إنَّ العزَّةَ بين سطوره، والكرامةَ بين كلماته،
ففي كلِّ كلمةٍ دستور، وفي كلِّ آيةٍ سرور،
إنه سبيلك نحو الجنان ورضا الرحمن،
وطريق الخير والهداية والإحسان،
إن طبَّقْت ما فيه شملتك رحمة الله وحفظتك قدرته وقوته من كل شر.

إنه القرآن! حديثُ اللهِ للعباد، نور الهدى والرشاد، به تَنْتَصِرُ الأمم، وتصل إلى أعلى القمم، وترقى أسمى الهمم، من نهجه الخيرُ يُشرِق، وبعلومه المسلمُ يتفوَّق، وبهديه المؤمن يتألَّق، أنزله الله رفعةً لنا من أجله خاض المسلمون المعارك والغزوات،

نوره يتدفق على الأرض من السبع السماوات، وآياته تتلألأ في الليالي الحالكات.

إنه القرآن! خشوعُ قيامِ الليل، نجاةٌ من الويْل، ومن سنا طيفه الشريف، ينطلق كل مؤمنٍ عفيف.

إنه القرآن! تحفظه الصدور، تقرؤه الألسنة، وتبكي منه القلوب، والاشتغالُ به أفضل العبادات، نردده في كل الصلوات، يزينه اسم المولى سبحانه وتعالى، فتدبَّرْ آياته وعِش معه وله وبه تَكُنْ من السعداء في الدارين.

بعد محاضرة لي في جمْعٍ من النساء عن فضل القرآن في رمضان جاءتني عجوز تهمس في أذني أنها ختمت القرآن سبع ختمات

سألتها عن عمرها؟ قالت: سبعون عامًا!

روي أنّ رجلًا قال لعمر رضي الله عنه: ولِّني مما ولاك الله

فقال له عمر: أتقرأُ القران؟!

قال: لا!

قال: فإني لا أُوَلِّي من لا يقرأُ القرآن!

فتعلَّم الرجلُ رجاء الولاية، فلما حفظ كثيرًا من القرآن تخلَّف عن عمر،

فلقيه عمر يومًا فقال له: ما أبطأ بك؟

قال له: تعلَّمتُ القرآن فأغناني الله تعالى عن عمر وعن بابه!

ثم قرأ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3].

القرآن منهج حياة!.. والله إنه لحياة!

لا تجعلوا القرآن فقط ترتيلًا وتلاوةً وحفظًا ومراجعةً

القرآن أُنزِل لأعظمَ من ذلك!

أُنزِل القرآنُ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾

تأملوا القرآن بعمق أكبر، اقرؤوه بقلب حاضر.

حين تحملون مصاحفكم بأيديكم وتفتحونها لترتلوا آياته انقلوا قلوبكم من دُنيا تكتظُّ بالكثير.

انقلوها من هذه الدنيا لدار آخرة تنتظرنا!

وإذا فعلتم ذلك ابدأوا حينها التلاوة.

اجعلوا قراءتكم للقرآن محدَّدةً بالزمن لا بالمقدار حتى لا تسابقوا وتسرعوا في التلاوة لتنتهوا من المقدار دون أن تعي قلوبكم ما تقرأ!

اجعلوها بالزمن وبتأمُّلٍ دقيقٍ وتدبُّرٍ وقلبٍ حاضر

حتى لو لم نقرأ خلال ساعة سوى آية واحدة بتدبر لكان خيرًا عظيمًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (قراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءةِ خَتْمةٍ بغير تدبَّرٍ وتفهُّمٍ، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وحلاوة القرآن)[1].

حين تُحضِرُون قلوبكم وتنقلونها من الدنيا إلى الآخرة وتعيشون مع آيات الله وتبدأون بالتلاوة والتدبر والتفكر، انتبهوا لكل ما تقرأون، فحين تمرّون على:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: 33]

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: 20]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: 5]

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: 157]

أو غيرها من صفات المؤمنين الصفات التي نتمنى لو كُنّا من أهلها، أهل الفوز والفلاح والهداية والتقوى.

اقرأوا حينها أعمالهم التي جعلتهم ينالون هذه الصفات، وفتِّشوا بقلوبكم عنها، هل نحن من هؤلاء؟!

لنبحث كثيرًا ولنحرصْ على أن نكونَ منهم.

---

(1) مفتاح دار السعادة، لابن القيم: 1/ 535.

وبالمقابل تأملوا الأوصاف المناقضة لهم.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾

وغيرها..

نحن نستبعد عن أنفسنا تمامًا أن نكون منهم؛ لكن لننظُر لأعمالهم، ولنتأمل أنفسنا جيدًا، ولنحذرْ من كل عمل قد يجعلنا من هؤلاء الذين وَصَفَهم الله في كتابه بهذا الوصف.

وفي كِلا الأمرين لنسألِ الله من فضله ولنستعِذْ به من سخطه!

حين تمرون على أسماء الله في نهايات الآيات تأمّلوها جيدًا، اقرؤوا معاني أسماء الله، واربطوها بالآيات وبسياقها واقتران بعض الأسماء ببعضها دون الأخرى!

تأملوها بعمق فإنَّ أشرفَ علمٍ وأعظمَ علمٍ في كتاب الله هو العلم عن الله في أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.

واسألوا الله أن يفتح عليكم في ذلك، اسألوه عونًا وبقلبٍ صادق.

تأمَّلوا الأمثال التي ذكرها سبحانه في كتابه، كثيرة هي،

ضربها لنا سبحانه لحكمةٍ ولنتأمَّلها ونعقلها

تأمَّلوها مرُّوا عليها جميعًا، اعرفوا مواضعها، وافهموا وجه الشبه، ولمَ ضرب الله سبحانه هذا المثل..!

عميقةً هي فتأمَّلوها جيدًا واسألوا الله من فضله!

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

[العنكبوت: 43]

تأملوا القصص في كتاب الله! فكم قصَّ سبحانه من قصص الأولين والآخرين، أشخاصٍ وأقوامٍ، أنبياءَ ورُسُلٍ وأُمَمٍ غابرة قصّها لنعتبر!

لنتأمل حالهم، لنتأمل ما فعلوه وما استحقوا به ما أصابهم؛ إنْ خيرًا وإنْ غيرَ ذلك!

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: 111]

لن يوفِّقَ اللهُ لتدبر كتابه إلا من كتبَ له التوفيق؛ فاسألوه التوفيق!

فاعبدوه واشكروا له! اشكروه على نعمته! وخذوا الكتاب بقوة!

لَمّا عاد خالد بن الوليد رضي الله عنه من الجهاد أخذ المصحف وقام يقبله ويبكي

ويقول: "شغلنا عنك الجهاد!"

واليوم ما الذي شغلنا عن القرآن؟!! هل الجهاز؟!!

قيل لأحدهم: كيف كان حالهم مع القرآن؟

فقال: كحالنا مع الجوال!!

فكيف حالك مع القرآن؟

تمضي الحياة وأنت تطلب أُنْسَها،

والأُنْسُ كلُّ الأُنسِ في القرآن!!

هذا آخرهم! فكيف بأولهم؟

أخبر الحبيب ﷺ عن آخر من يخرج من النار ويدخل الجنة فقال: «آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ، فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنَّ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا، فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ

مِنَ الْأُولَيَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِيهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي مِنْكَ؟ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ، أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟»، فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ، قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مِنْ ضَحِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ» [صحيح مسلم: 187].

هذا آخر من يدخل الجنة!

فكيف بأولهم؟!

كيف بأول زمرة يدخلون خلف الحبيب ﷺ دون حساب ولا عذاب؟!

إنّ ربكم يستزيركم

بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ بالمنادي ينادي: يا أهل الجنة! إن ربكم تبارك وتعالى يستزيركم فحيَّ على زيارته، فيقولون: سمعًا وطاعة، وينهضون إلى الزيارة مبادرين، فإذا بالنجائب قد أعدت لهم فيستوون على ظهورِها مسرعين، حتى إذا انتهوا إلى الوادي الأفيح الذي جعل لهم موعدًا وجمعوا هنالك فلم يغادر الداعي منهم أحدًا، أمر الرب تبارك وتعالى بكرسيه فنُصب هناك، ثم نصبت لهم منابرُ من لؤلؤ ومنابرُ من نور، ومنابرُ من زبرجد ومنابر من ذهب ومنابر من فضة، وجلس أدناهم وحاشاهم أن يكون فيهم دني على كثبان المسك، ما يرون أن أصحاب الكراسي فوقهم في العطايا، حتى إذا استقروا في مجالسهم واطمأنت بهم أماكنهم نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزَكموه فيقولون: ما هو؟! ألم يُبيضْ وجوهنا ويُثقلْ موازيننا، ويُدخلْنا الجنة ويُزحزحْنا عن النار! فبينما هم كذلك إذا سطع لهم نور أشرقت له الجنة فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار جلّ جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم

وقال: يا أهل الجنة! سلام عليكم، فلا تُرد هذه التحية بأحسن من قولهم: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، فيتجلّى لهم الرب تبارك وتعالى يضحك إليهم ويقول: يا أهل الجنة، فيكون أول ما يسمعون منه تعالى: أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب ولم يروني؟ فهذا يوم المزيد، فيجتمعون على كلمة واحدة، أن قد رضينا فارض عنا، فيقول: يا أهل الجنة إني لو لم أرض عنكم لما أسكنتكم جنتي. هذا يوم المزيد فاسألوني، فيجتمعون على كلمة واحدة: أرنا وجهك ننظر إليك، فيكشف لهم الرب جل جلاله عنه الحجب ويتبدى لهم فيغشاهم من نوره ما لو لا أن الله تعالى قضى ألا يحترقوا لاحترقوا، ولا يبقى في ذلك المجلس أحدٌ إلا حاضره ربه تبارك وتعالى محاضرة حتى إنه ليقول: يا فلان! أتذكر يوم فعلت كذا وكذا، يذكره ببعض غدراته في الدنيا، فيقول: يا رب، ألم تغفر لي؟ فيقول: بلى، بمغفرتي بلغت منزلتك هذه.

فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة!

ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم في الدار الآخرة!

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ .

أهل الجنة في نعيم مقيم..

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤﴾

شبابٌ فلا هرم!

وصحةٌ فلا سقم!

وخلودٌ فلا موت!

هذه هي الجنة، ولعلَّك تتساءل بعد هذا: ما الطريق إلى الجنة؟

أبشروا! كلُّكم يدخل الجنة.. كلُّكم يدخل الجنة.. كما قال ﷺ، إلا من أبى، قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟! قال: «**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى**» [متفق عليه].

اعلم أنك لن تدخل الجنة إلا بمفتاح، ومفتاح الجنة لا إله إلا الله، وأسنان المفتاح شرائع الإسلام؛ فمن جاء بمفتاح له أسنان فتح له، ومن جاء بمفتاح بلا أسنان فلا يلومَنَّ إلا نفسه.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: 17] والباء هنا سببية؛ أي: بسبب أعمالهم الصالحة بعد رحمة الله تعالى.

إياك أن تكونَ ممَّن قال فيهم يحيى بن معاذ الرازي: عملٌ كسراب، قلبٌ من التقوى خراب، وذنوبٌ بعدد الرمل والتراب، ثم تطمع في الكواعب الأتراب!! هيهات أنت سكرانٌ بغير شراب[1].

تريد الجنة وأنت تنام عن صلاة الفجر؟! تريد الجنة وأنت تأكل الحرام وتشاهد الحرام وتسمع الحرام؟! فتُبْ مِنْ ذنوبك، وابكِ على عيوبك، وإياك أن تُحرَم النعيمَ المقيمَ في الجنة بلذّةِ ساعةٍ فانية

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ .

(1) قول يحيى بن معاذ بنصِّه في المختار من مناقب الأخيار، لابن الأثير الجزري، ص: 266.

من تَرَكَ بينه وبين الله بابًا دخل منه يومًا ما

كان سهيل بن عمرو على سفر هو وزوجته، وفي أثناء الطريق اعترضهم قطاع الطرق، وأخذوا كل ما معهم من مالٍ وطعام.. كل شيء!!

وجلس اللصوص يأكلون ما حصلوا عليه من طعامٍ وزاد، فانتبه سهيل بن عمرو أن قائدَ اللصوص لا يشاركهم الأكل،

فسأله: لماذا لا تأكل معهم؟!!

فرد عليه: إني صائم؟!

فدهش سهيل فقال له: تسرق وتصوم؟!

قال له: إني أترك بابًا بيني وبين الله لعَلِّي أدخل منه يومًا ما!

وبعدها بعام أو عامين رآه سهيل في الحج وقد تَعَلَّق بأستار الكعبة وقد أصبح زاهدًا عابدًا

فنظر إليه وعرفه فقال له: أو علمت.

مَنْ تَرَكَ بينه وبين الله بابًا دَخَلَ منه يومًا ما!

إياك أن تَغْلِقَ جميع الأبواب بينك وبين الله ﷻ حتى ولو كنت عاصيًا وتَقْترف معاصيَ كثيرة، فعسى باب واحد أن يفتح لك أبواب.

فإني قريب..

هل جرَّبتَ يومًا أن ترتميَ بين يديّ ربِك،
تدعوه، تناجيه، تخبرُه بمدى حُبِّك وشوقِك،
تصارحُه -وهو العالِم بِك- بكُلِّ ما فعلت، وبكل ما ارتكبت،
تطلبُ منه أن يضيء روحَك بالخيرِ والرشاد،
تشكو إليه ضعفك، تخبره عن خوفِك،
تقول له كلّ ما يجول في خاطرك؟!
إنه القريب منك؛ بل الأقرب إليك،
وأنت -بكل حزن- أبعدُ ما تكونُ عنه، فهل ترضى بذلك؟!
هل ترضى أن يتنزل الله سبحانه إلى السماء في كلِ ليلة
دون أن يلقاك تناجيه وتدعوه وترتمي على أعتابِ مغفرته؟!
هل ترضى أن يَتَوَدّد الله سبحانه إليك وأنت تتكَبَّر وتتجاوز
ويتملك روحَك الغرور وأنت الضعيف المحتاج؟!
هل ترضى بأنْ يقول الله سبحانه: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].
وأنت لا تكلِّفُ نفسَكَ بمصارحته ودعائه؟!

هل ترضى أن يَمُرَّ الليلُ تِلْوَ الليل، والنَّهارُ تِلْو النهار،
دون أن ترفعَ أَكُفَّ التضرع لله لمناجاته ودعائه؟!
ما هذا الغرور؟! ما هذا الكِبر؟!
أيها الضعيف وكُلُّنا ضعفاء!
أيها الفقير وكلنا فقراء!
امض إلى الله وتَحَدَّث معه بالدعاء
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾
تخيّل - يا رعاك الله- أن الله جلَّ في علاه يشتاقُ لدعائِك؛
بل يباهي بك ملائكة السماء وأنت تمد يديك لتدعوه!
تخيل أن الله ﷻ يُقْسِم على نفسه بأن يستجيب دعاءك الصادق ولو بعد حين!

حَدِّثْ ربَك بالدعاء، أخبره عن مشاكِلك، عن كلِّ ما في خاطرك،

أخبره عن أزمتِك النفسية أو المالية،

اطلب منه العون والمساعدةَ والرضا والقبول،

أخبره عن همٍّ يجولُ في صدرِك ويصول، ولا تَعرِفُ له أيَّ حلول.

فالدعاءُ هو حديثُ المؤمن مع الله ذِي الجلال والإكرام، ومساحةٌ للفضفضة والبوحِ والكلام، وهو السبيلُ الأسرعُ والأقومُ لتجاوزِ الأحزان، والطريق الأيسرُ لمواجهة الأشجان، وتحدي الصروف والكُرُبات، ومسح الدموع والآهات.

والدعاءُ سلاحٌ يتَسَلَّح به المؤمن من نوائب الأيام ومصائب الحياة، فهو حمايةٌ ووقاية، وتقرُّبٌ وهداية، وعبادةٌ وولاية، وهو الجدار الذي يواجهُ كل مأساة ومعاناة قد تصيبُ المسلم في الحياة، فهو يردُّ البلاء، ويقرِّبُك من اللهِ خالقِ السماء.

والدعاء هو إقرارٌ منك بالذنوب، وطلبٌ للمغفرة والثواب، وهو يفتح أمامَك كلَّ الأبواب، ويحميك مِنْ تَعَب الدنيا ومن المشقَّةِ والعذاب، فقف بروحِك على الأعتاب، وقل بصدق: برحمتِك أستغيث يا حيُّ يا وهّاب!

سألوا النبيَّ ﷺ: أربنا قريب فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى قوله:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186] [العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني].

فإني قريب!

أقرب إليك من الصاحبِ والحبيبِ والقريب!

أقربُ إليك من عَشَمك في الناس!

أقربُ إليك منهم جميعًا!

أقربُ إليك من حبل الوريد! فلا مسافة ولا وسطاء!

ابتلى الله عبدًا من الصالحين، فقال لملائكته:

لقد ابتليتُ عبدي لأَسْمَعَ صوته.

تخيل معي أن الله الذي بيده ملكوت السماء والأرض وبيده هذا الكون يعلمُ حُزنك الذي أرهقك، ومرضك الذي أوجعك، وكلماتك المسجونة في صدرك؛ لكنه يريد أن يسمع صوتك، ويرى انكسارك ويرضى برضاك!

" دَخَلَ رَسُولُ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، يُقَالُ لَهُ: أَبُو أُمَامَةَ، فَقَالَ: «**يَا أُمَامَةَ! مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ؟**»، قَالَ: هُمُومٌ لَزِمَتْنِي، وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «**أَفَلَا أُعَلِّمُكَ كَلَامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ ﷻ هَمَّكَ، وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ، قَالَ: «**قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ، وَقَهْرِ الرِّجَالِ**»، قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَ اللهُ ﷻ هَمِّي، وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي [سنن أبي داود: 1555]

حينما ضاقت الحياة بأبي أمامة لم يجد أُنسًا ولا وملجأً غير بيت الله.

جلس في المحراب، فأسند همومه على جدرانه؛

جلس حيث لا يُعكِّر صفوُه ضوضاءُ الحياة وعبثُ الناس وضجيجُ الأيام.

دخل عليه الحبيب ﷺ فَرَبَط قلبه في السماء، وأخذ بيده إلى الباب الذي لا يُغلق!

نقل فؤاده من ضيقِ الأرض إلى سَعَة السماء..

علّمه أنَّ الباب الوحيد الذي لا يُقرع هو بابُ الله؛ لأنَّ الأبواب التي تُقرع هي الأبواب المغلقة، وبابُ الله مفتوحٌ على مصراعيه!

فقط احمل متاع قلبك وقِفْ على بابه!

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ:

"والله إني لأدعو الله ﷻ وأرى يدَ الله تكتُبُ ليَ الإجابة!"

فقريبًا سَتَذوقُ طعمَ الفرح والسعادة، وليأتينَّ عليك يومٌ تقول فيه:

ذهبَ التعبُ، وابتلَّتِ العروق وانتصرَ الأملُ.

فدعواتك التي رحلت للسماء بالرجاء ستعود لك بالعطاء، واللهُ إذا أعطى أدهش.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ:

سِنينُ الجَهْدِ إن طالت ستُطوى ... لها أمدٌ وللأمدِ انقضاءُ

لنا بالله آمالٌ وسلوى ... وعندَ الله ما خابَ الرّجاءُ

إذا اشتدّت رياحُ اليأس فينا ... سيعقُبُ ضيقَ شدّتها الرخاءُ

فبَعْدَ العَتْمةِ الظلماءِ نورٌ ... وطولُ الليلِ يعقُبُه الضياءُ

أمانينا لها ربٌّ كريم ... إذا أعطى سيُدهِشنا العطاءُ

تأمَّل معي قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [السجدة: 5]

إنه يدبر قصة حياتك بما يليق بك،

ويضع لك محطات لتسيرَ عليها

تقف اليوم على محطة حُزن، فما إن تلبث حتى يَنْقلك إلى محطة فرح،

يترك لك مساحة لتأخذ بالأسباب، ولا يتركُك تأخذُها وحدَك؛ بل ويعينك!

يأخذ منك ويعطيك، ويعطيك ويأخذ منك؛ لتعملَ الذي عليك، ويرتاح فؤادُك من الذي ليس في يديك..

فدعواتك استجابها الله منذ أن دعوته؛ ولكنه (يُدبر الأمر)

فلولا البلاء لظننت أنَّ الناس كلهم سواء،

ولتشابهت أمامك الوجوه،

فيكشف لك الابتلاء عدوك من صديقك، وحبيبك من بغيضك؛ لتعلم أنّ ليس لك أحدٌ إلا الواحد الأحد..

فلولا البلاءُ ما عرفتَ نقطةَ ضعفك فَقَوَّيتها،

ولما زادت ثقتُك بمواهبك ومهاراتك فنمَّيتها،

لولا البلاءُ لما ذُقْتَ حلاوةَ النجاح بعد الفشل، والفرحَ بعد الحزن، والراحةَ بعد التعب، والاجتماعَ بعد الفراق، والسَّعةَ بعد الضيق، واليُسرَ بعد العُسر.

لولا البلاءُ لما عُدْتَ إلى الله وأذهبْتَ همومَك بالسجود والرجوع إليه.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: 11]

من عامَل اللهَ باليقين عاملَهُ اللهُ بالكرامات

ما أجمل الراحة النفسية حين تزرعُ اليقينَ في فؤادك!

وأنت تعلم أنَّ ما فاتَك لم يكن لك!

وأنّ الكرم والبركة والأيام الجميلة قادمة يقينًا بالله!

حَقُّك الذي لم تأخذه في الدنيا سيُسترد لك يوم القيامة

دمعتُك التي لم تُمسح في الدنيا ستُمسح فرحًا يوم القيامة

حزنُك الذي لم يلتفتْ له أحد في الدنيا سيزول كأنه لم يكن يوم القيامة!

إنّما يولدُ جنينُ الفرج... بعدَ مخاضِ الابتلاء

لا تُفَكِّر كثيرًا فيما تحمله الأيام القادمة، أطلِق عنانَ روحِك الحالمة، فالقدر مكتوب، وفي طيّات الدقائق خيرٌ كثير، فلا تَنْشَغِل في المستقبل والمصير، عليك فقط أن تُحسن المسير.

ولا تيأس، فاليأسُ يُدَمِّر الأحوال، وليس من شيمِ الرجال، دعْك من الأقوال، وخُذْ عهدًا على نفسك أن تُعَزِّز حياتك بخير الأعمال، وجميل الأفعال.

لا عليك، فالهِمَّةُ تسكنُ بين جنبيك، أطلِق يديك، تفكَّر بعينيك، واترك القلب العليل، فالطريق طويل، ولا تضلَّ السبيل، وكن على يقين بالله العظيم الجليل

لا تجعلِ اليأسَ يستحوذُ على الروح، ولا تتركِ البؤسَ يزيد من الجروح، فمِنْ بين أزهار العزيمةِ رائحةُ فَرَجٍ تفوح.

كن ممن قال فيهم الشاعر:

النفسُ تَسمو بالطموحِ وَكُلَّما حاذيتُ نَجمًا صارَ هَمّي أَبْعَدا

كن واثقًا!

كل الأشياء من حولك سَتَتَغَيَّر

الفقر غنًى، والخوف أمنًا،

والصعب سهلًا، والضعف قوةً،

والهم سرورًا، والبعد قربًا،

والفراق لقاءً، والنوم يقظةً،

والتعبُ ارتياحًا!

كن واثِقًا أنَّ الأيام تحمل لك بين طيَّاتها خيرًا

والأحزان تنسج لك من الدمع يُسرًا

والهموم ترسم لك من الليل فَجْرًا

والأقدار تسقي لك أرض الهمِّ خَيْرًا

لا عليك!

سلِّم أحزانك لله، وقل: يا الله!

تخيَّل لو أنَّ مشركا بالله دعا الله، وهو في حالة اضطرار!

هل يجيبُه الله؟ نعم يجيبه!

وأنت يا من تسجد لله! وتَشْهَد أنه لا إله في الوجود إلا الله!

سيجيبك سيجيبك

خُلِق الحزنُ لأجل الفرح
وخُلِق الفقرُ لأجل الغِنى
وخُلِق المرضُ لأجل الشفاء
وخُلِق الظلامُ لأجل الفجر
فلا تستعجل!
سيكْسُر الدعاءُ ظهر المستحيل إن شاء الله!
حين تطرقُ الأبوابَ كلها لتبحث عن سعادتك،
لا لتشتكي للبشر؛ لأنهم لن ينفعوك بأكثر من كلمة (الله يعينك)
اختصر المسافاتِ كلَّها واشتكِ للذي (يُعينُك) الله سبحانه.
إذا زاد الحزنُ في قلبِك،
واستولى اليأس على دربك،
فلا تفقِدْ صبرك
ولا تَزِدْ من قهرك،
ارفع أكُفَّك إلى السماء واهتف: يا الله!
الدعاءُ سلاحُ المؤمنين،
به تَتَفَتَّحُ أبواب السماء،
وتزول كلُّ أسبابِ العناء،

ادعُ ربك بكُلِّ رجاء،

ولا تيأس من روحِ الله،

فالدعاءَ الدعاءَ!

حاتم الأصم من كبارِ الصالحين، حنّ قلبه للحج في سنةٍ من السنوات ولا يمتلك نفقة الحج، ولا يجوز سفره؛ بل لا يَجِبُ الحجَّ دون أن يضع نفقة الأبناء دون أن يرضوا

فلما أقبل الموعدُ رأته ابنته حزينًا باكيًا وكان في البنتِ صلاحٌ

فقالت له: ما يبكيك يا أبتاه؟!

قال: الحجُّ أقْبل.

قالت: ومالك لا تُحُجّ؟

فقال: النفقة.

قالت: يرزقُك الله.

قال: ونفقتُكم؟

قالت: يرزقُنا الله.

قال: لكنَّ الأمر إلى أمك.

ذهبت البنتُ لتذكِّر أمها..

وفي النهاية قالت له الأم والأبناء: اذهب إلى الحج وسيرزقنا الله!

فترك لهم نفقة ثلاثة أيام، وذَهَبَ هو إلى الحج وليس معه ما يكفيه من المال، فكان يمشي خلف القافلة،

وفي أوَّل الطريق لسعتْ عقربٌ رئيسَ القافلة، فسألوا من يقرأ عليه ويداويه، فوجدوا حاتمًا، فقرأ عليه فعافاه الله من ساعته.

فقال رئيس القافلة: نفقة الذهاب والإياب عليّ.

فقال: اللهم هذا تدبيرك لي فأرني تدبيرَك لأهل بيتي!

مرت الأيام الثلاثة، وانتهت النفقة عند الأبناء، وبدأ الجوع يقرُصهم، فبدؤوا بلوم البنتِ، والبنتُ تضحك!

فقالوا: ما يُضحِكُكِ والجوعُ يوشك أن يقضيَ علينا؟!

فقالت: أبونا هذا رَزَّاقٌ أم آكلُ رِزْق؟

فقالوا: آكلُ رِزْق؛ وإنما الرزّاقُ هو الله!

فقالت: ذَهَبَ آكلُ الرزق، وبقي الرزَّاق.

وهي تكلمهم وإذا بالباب يُقرُع، فقالوا: من بالباب؟

فقال الطارق: إن أمير المؤمنين يَستسقيكم.

فملأت القربةَ بالماء، وشرب الخليفةُ فوَجَدَ حلاوةً بالماء لم

يعهدها!

فقال: من أين أتيتم بالماء؟

قالوا: من بيت حاتم.

فقال: نادوه لأجازيه

فقالوا: هو في الحج.

فخلع أمير المؤمنين منطِقه-وهو حزام من القماش الفاخر المرصَّع بالجواهر- وقال: هذا لهم.

ثم قال: من كانت لي عليه يدٌ-بمعنى: من يحبني

فخلع كل الوزراء والتجار مناطِقَهم لهم، فتكوَّمت المناطق، فاشتراها أحد التجار بملأ البيتِ ذهبًا يكفيهم حتى الموت، وأعاد المناطِق إليهم.

فاشتروا الطعام وهم يضحكون، فبَكَت البنت!

فقالت لها الأم: أمرك عجيب يا ابنتي! كنا نبكي من الجوع وأنت تضحكين، أما وقد فرَّج الله علينا فمالَك تبكين؟!

قالت البنت: هذا المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا

نفعًا -يقصد: الخليفة- نَظَرَ إلينا نظرةَ عطفٍ أغنتنا إلى الموت، فكيف بمالِك المُلك؟!

إنها الثقة بالله، إنها الثقة بالرزّاق ذو القوة المتين، إنها قوة الإيمان وقوة التوكل على الله، فسبحان الله أين نحن من ذلك؟!

إنه أوّاب

مَرِض أيوب عليه السلام ثمانيةَ عشرَ عامًا، فملَّ الناسُ من زيارة أيوب، ولم يَعُدْ بجواره إلا زوجتُه وصاحبُه!

بعد ثمانيةَ عشرَ عامًا من المرض ماذا قال الله عن أيوب عليه السلام؟

قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٤٤﴾ [ص: 44]

كان الناس يسمعون صوت أيوب، وكان اللهُ يسمعُ قلبه!

وَصَفَهُ الله بأنه أوَّاب بعد ثمانيةَ عشرَ عامًا ليس عامًا ولا عامين!

بعضُنا يُصابُ بشوكةٍ صغيرةٍ فيمرض أيامًا فيلعنُ الحياة ويُصابُ بالاكتئاب!!

لم يكن أيوب عليه السلام هذه السنوات يُفكِّر في مرضه، ولكن كان يُفكِّر في حِكمة الله من هذا المرض.

فعطاءُ الله للعبد رحمة، ومنعُه حكمة.

متى عاد بصر يعقوب عليه السلام بعد العمى؟

ومتى عاد له يوسف عليه السلام؟

حينما ترك التدبير لله ووَكَّلَ أمره إليه!

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

يقول الحبيب ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ**» [سنن أبي داود: 4699]، «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**» [مسند أحمد: 2803]

الوالدُ هل يضربُ ولدَه كُرهًا؟

كلا ولكن ليعلِّمه درسًا مؤجلًا في الحياة

اللهُ في كثير من الأحيان يتركُك في الحياة، ويراك وأنت تذهب إلى الناس وتقرعُ أبوابهم وتَشْكوا إليهم، فَتُسَدُّ في وجهك الأبواب، ثم تعود إلى الله!

فهل يترُكُك بعد أن أنهيت الآمال دونه؟

بل يتلقاك من بعيد، ويعوضك عن خذلان الناس لك وعن ليالي الحزن الطويلة، **وكأنه تركك وحدك ليكفلك وحده سبحانه.**

فدروسُ الكَسْر نتيجتُها الجَبر

ودروسُ الهموم خُلاصتها الفرج

فهو يعطيك أكثر مما يأخذُ منك

ويعوِّضك أكثر مما يحرمك

وييسر لك أكثر ما يُعِسِّرُ عليك

فهو الذي سخَّر الجبال والحديد لداود

وسخَّر الرياح والجِنَّ لسليمان

وسخَّر البحر لموسى

وسخر الناس لإبراهيم

سيُسَخِّر لك هذا الكون، وسيُعطيك حتى يرضيك،

فهو صاحبُ كل وحيد، وسامعُ صوتِ كلِّ مكروب، وحبيبُ من ليس له حبيب.

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾

في الغار

يلتفُّ خمسون شابًّا يحملون سيوفهم يريدون قَتْل الحبيب ﷺ، فليتفُّون حول الغار، وينظرُ أبو بكرٍ رضي الله عنه فيقول: يا رسول الله! وأيم الله لو نَظَر أحدُهم تحت قدميه لرآنا! والنبي ﷺ ينظرُ إلى أبي بكر ويقول له: يا أبا بكر ما ظنُك باثنين اللهُ ثالثُهما؟! لا تحزن إن الله معنا.

كم من خمسين همًّا وحزنًا حول غار قلوبنا في هذا الزمان،

فكيف السبيل للخروج إن لم يكن رفيقُ هجرتك هو اليقين بالله؟!

انظر لثقةِ الحبيب ﷺ بربه،

رغم هذا الخطر والسيوف من حولِه تقطرُ دمًا تتعطش لسفك الدم

إلا أنه يقول: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾

هذا ما يسمى بالاستعلاء

وهو أن تستعليَ بالله على عدوِّك وهمِّك وحُزنِك

فترى نفسَكَ كالطائر المُحلِّق في السماء لا يخشى الوقوع.

فكم من الناس اليوم يستعلُون بغير الله فيسقطُون!

من وجد الله ماذا فَقَدَ؟

ومن فقد الله ماذا وَجَدَ؟

كان أحدُ السلفِ أقْرعَ الرأس، أبرصَ البدن، أعمى العينين، مشلولَ القدمينِ واليدين، وكان يقول: "الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرًا ممن خَلَق، وفضَّلني تفضيلًا".

فمر به رجلٌ فقال له: مما عافاك؟! أعمى وأبرصُ وأقرعُ ومشلولٌ! فمِمَّ عافاك؟

فقال: ويحك يا رجل! جعلَ لي لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا، وبدنًا على البلاء صابرًا!

اللهمَّ ما أصبح بي من نعمه أو بأحد من خلقك فمِنْكَ وحدك لا شريك لك، فلك الحمدُ ولك الشكر.

هذا هو الاستعلاء أن تفتَقِر إلى الله، وتضعُفَ بين يديه وحدك، وتقوى أمام الناس بهذا.

فلا يكسِرُك عدوٌّ، ولا تبكي لخُذلان صديق، ولا تندَمُ على ضياع معروف!

ويمنعني الشَّكوى إلى النَّاس أنَّني عليلٌ ومَنْ أشكو إليه عليلُ

ويمنعني الشَّكوى إلى الله أنَّهُ عليمٌ بما أشكوه قبلَ أقولُ

وهذا إبراهيم عليه السلام لمَّا وُضِعَ في نارٍ حقيقية وليست نار الهموم والديون والأحزان؛ ولكنها نارٌ تلتهب وتشتعل، جاءه جبريل وقال له: ائذن لي يا إبراهيم فأطفئ لك النار! فنظر إليه إبراهيم عليه السلام وقال: أما منك يا جبريل فلا، وأما من الله -فحسبي الله ونعم الوكيل

لا مسافة ولا وواسطة؛ فماذا كانت النتيجة؟

﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾

لمّا كان اللهُ يعلمُ أنه لا سكونَ لأرواحِ عبادهِ إلا معه؛ أعقبَ ذكرَ فَنائهم: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦﴾ [الرحمن: 26] ببقائه وحده -سبحانه-: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ ،

وهنا يلُوحُ قولُ القائل:

فحَسبي بقاءُ اللهِ مِن كُلِّ ميِّتٍ وحَسبي حياةُ اللهِ مِنْ كُلِّ هالكِ[1]

---

(1) البيت مذكورٌ في المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر الدينوري: 3/ 156.

ذهبتْ امرأةٌ يومًا إلى أحد الملوك لترجوه أن يطلق سراح ابنها المسجون،

فانفعل الملك بشدَّةٍ وقال: أو لم يُشنَق هذا الشابُّ بعد؟!

وكأنَّ أمَّهُ هي التي ذَكَّرَت بقتله!-

فأرسل الملك مرسومًا ملكيًّا إلى قائد الحرس يطلب منه إعدامَ ابنِ هذه المرأة

وبعد فترةٍ قصيرةٍ جاء قائدُ الحرس ومعه الشابُّ ودخلا على الملك،

فصرخ الملك وقال: أبعث إليك برسالة لتشنقه فتحضره إليَّ!

فتعجبَّ قائدُ الحرس وقال: مولايَ هذا هو المكتوب الذي وَصَلني

فقرأ الملك الرسالة، فوَجَدَ نفسه أنه قد أخْطأ، وبدلًا من أن يكتب يُشنَق كتب يُطلَق!

فصاح الملك: إذن يُطلَق.. ثم يُطلَق.. ثم يُطلق!!

فمن أراد الله له أن يُطلق ما استطاع له أحدٌ أن يُشنَق!!

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

حينما يُنعِم الله على العبد ويفتحُ له الأبواب يسير بين الناس مجبورًا ومسرورًا، ويستنيرُ وجهُه، ويرفع رأسَه راضيًا على العطاء، ولكن حينما يحرمه الله ويمنع عنه فإنه يسيرُ بين الناس تعيسًا ذليلًا ويُنغِض رأسه إلى الله سخطًا وحزنًا على المنع والحرمان.

وهذا ليس من الأدب مع الله!

فمن الذي أعطى البارحة؟ هو الله!

ومن الذي حرم اليوم؟ هو الله!

ندعوه في البحر أن يُنجِيَ سفينتنا وإن رجعنا إلى الشاطيء نسيناهُ

فهل من الأدب أن يعطيك فترفعُ رأسك؟ ويحرمك فتُنغض رأسك؟!

هل من الأدب أنْ يعطيك الصحة سنوات ويمرضك لساعات فتسخط؟!

من المعطي؟ ومن المانع؟ أليس وحده الله؟!

يريد الله منك السرور حين العطاء، والسرور كذلك حين الحرمان،

يريد منك أن تبقى بجواره مطمئنًا حين المرض كما كنت بجواره وأنت صحيحُ البدن.

ومن الناس من يدعو الله فلا يجد نتيجةً فيفرُّ ويهربُ من باب الله!

يسأل اللهَ الرزق فلا يُرزق فيذهبُ للرِّبا.

يسأل الله الشفاء فلا يُشفى فيذهب للكَهَنَة والعرّافين والسَّحَرة.

والسبب أنه مضطرٌّ فقد أُغلِقَتْ أبوابُ الدعاء كلها!

ألم يسمع بقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 62]

فمهما بلغت الأسباب فهو معك، حتى ولو كنت مُضطرًّا فلا تغير مسار الطريق، ولا تَعُدْ من وِجْهَتِك فكلُّ الطرق الالتفافية ستعيدُك في النهاية إلى (الله).

فعليك بالإلحاح؛ لأن الله يُحبُّ العبد اللحوح الذي لا يَمَلُّ ولا يَكَلُّ من الرجاء واللجوء إلى الله.

لهذا قال أحد الصالحين: إذا سألت الله فلم يعطك فقِفْ على بابه وابكي كما يبكي الصبيُّ الصغير، ولا تغادر باب الله إلا وقد أعطاك ما تريد

فالصبيُّ الصغيرُ إذا ما أراد حاجةً فإنه يمسك بثيابِ والده ولا يهدأ إلا حينما يلبِّي له والده حاجته.

فقف على باب الله، ولا ترجع إلا بالعطاء وإن طال الوقوف!

جرِّب واذهب للناس واطلب منهم، فإنهم سيعطونك مرة؛ ولكن لو عاودت الطلب سيغضبون؛ لكن الله يغضب إن لم تعد السؤال مراتٍ ومراتٍ!

لاَ تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبوَابُه لاَ تُحْجَبُ

اللهُ يَغْضَبُ إِن تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

استدعاء

هل رأيتَ ملكًا يطلب من مملوك؟!

هل رأيتَ غنيًا يستدعي فقيرًا ليسأَله؟!

إن مَلِكَ المُلُوك وربَّ الأغنياء يستدعيك كُلَّ ليلة، ليس ليلة في الأسبوع ولا في الشهر ولا في العام؛ وإنما كل ليلة!

﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾

يتنزَّلُ إلى السماء الدنيا ليسألك!

ليسألك نعم!!!

أيُّ رحمةٍ هذه؟! وأيُّ عطاءٍ هذا؟!

ينادي الله كل ليلة وفي الثلث الأخير من الليل: عبادي!

هل من تائبٍ فأتوبَ عليه؟

هل من مُستغفِرٍ فأغفرَ له؟

هل من طالبِ حاجةٍ فأقضيَها له؟

رغم ضعفنا يسألُنا

رغم ذنوبنا يسألُنا

رغم فقرنا يسألُنا

وهذا الوقت هو أفضل وقت في الليل كله

فكم من تائبٍ ما غُفِر ذنبُه إلّا في هذا الوقت!

وكم من سائلٍ تأخَّرتْ إجابةُ دعائه! فلما دعا في هذا الوقت انفرجت المصيبة واستجابَ الله الدعاء

وكم من مسلمٍ يأس من أن تدمَع عينُه من خشية الله! فتفاجأ بدمعته تنزل بسرعة على خده في هذا الوقت

إنه وقتٌ شريفٌ عزيزٌ فيه روحانية عجيبة

فإذا غارت النجوم، وهدأت الجفون، ونامت العيون؛

ولم يبق إلا الحي القيوم

فتوضأ وضوءك؛

والبس أحسن ثيابك؛

واستقبل القبلة؛

وقل: الله أكبر

وجهتِ وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين.

إن لله تعالى عبادًا يحبونه ويحبون لقاءه،

وينتظرون هذا الثلث الأخير من الليل بفارغ الصبر في كل ليلة،

ولا يزالون يجاهدون أنفسهم بالنوم والاستيقاظ

إلى أن يفوزوا مَع مَنْ فاز بهذا الوقت الشريف

فهل فررنا من زحامِ الحياة ومن ضجيج البشر وقُمْنا لنُجِيب؟

يقول لك كل ليلة أنه معك

فإن أذنبت فهو التَّوَّاب

وإن عصيت فهو الغَفَّار

وإن كَثُرَتْ حاجاتُك فسيقضيها لك..

وإن طالَ تفكيرُك وضاقت بك أحلامُك فسيحققها لك..

وإذا أتعبتْكَ ضغوطاتُ الحياة، وإذا اشتدت بك الأيام؛

فاعلم أنه الله يبتليك لأجلِ أن يُخرِج أجملَ ما فيك.

فكن هادئًا ومستريحًا، فأنت تسير في أرض الله وفي قَدَرِ الله وفي عون الله، واعلم بأنه لا يستطيعُ أحدٌ في الكون أن يُغلِق عليك بابًا فتحه الله لك

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾

سلاحٌ لا يُستهان به

قال النبي ﷺ: «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ، يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ» [صحيح مسلم: 757]

يُروى أنَّ أحدَ الوزراء قد اعتدى على أموال امرأة عجوز فسلبها حقوقها، وصادر أملاكها، فذهبت إليه العجوز تبكي وتشتكي من هذا الظلم فما أعطاها حقها

فقالت: لأدعون الله عليكَ!

فأخذ يضحك منها باستهزاء ويقول لها: عليكِ بالثُلثِ الأخير من الليل،

يقول ذلك باستهزاء!

أتهزأُ بالدعاء وتزدريه ... وما تدري بما صنع الدعاء

سهام الليل لا تُخطئ ولكن ... لها أمدٌ وللأمد انقضاء[1]

وفِعْلًا ذهبت العجوز وداوَمت على الدعاء في الثُّلث الأخيرِ

---

(1) البيتان مذكوران في المستغيثين بالله، لابن بشكوال، ص: 84.

من الليل،

فما هو إلا وقتٌ قصيرٌ حتى عُزِل الوزيرُ، وسُلِبتْ أموالَه وأخذوا عقارَه ثم جلدوه في السوق جلدًا تأديبًا له على أفعاله بالناس

فمن الذي مرَّ عليه؟

إنها العجوز

مرت عليه العجوز وقالت له: أحسنتَ! لقد وصفت ليَ الثُّلُثَ الأخير من الليل فوجدتُه أحسنَ ما يكون!

سُئِلَ الإمام عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: كم بين الأرض والعرش (عرش الرحمن)؟

فما أجاب بالأميال ولا بالكيلومترات، أتدرون ماذا قال؟

قال: بيننا وبين العرش دعوةُ مظلوم

إي والله! فكيف إذا كانت في آخرِ الليل أيضًا؟!

فمن كان يداوم على الثلث الأخير من الليل ويذوق حلاوته فإنه لن يستطيع أن يستغنيَ عنه.

سعيدُ بن الجبير كان مجابُ الدعوة إذا دعا استُجيبَتْ دعوته؛ وكان له ديكٌ يوقظه كل ليلةٍ لقيام الليل؛ لكي يعيش حلاوةَ

الثُّلث الأخير من الليل!

مرة من المرات ما صاح الديك، ففاتت ليلةٌ على سعيد،

فشق ذلك عليه، وصَعُب على قلبه فواتها

فلما زادت حسرته قال: ما بال الديك؟ قطع الله صوته!

يُقال: فما أذَّنَ الديكُ بعدها إلى أن مات

أصابته دعوةُ سعيد!

فقالت له أمه: يا بُني! لا تدعو على أحدٍ حتى لو كان ديكًا.

مهما سرقتك الحياة لا تنسَ الثلُثَ الأخيرَ

فما أكثر النائمين، فكُن أنت من النادرين

يا رجالَ الليلِ جِدُّوا   رُب داعٍ لا يُردُّ

ما يقومُ الليلَ إلّا   من له عَزْمٌ وجِدُّ[1]

❁ ❁ ❁

(1) البيتان في لطائف المعارف، لابن رجب الحنبلي، ص: **191**.

فصبرٌ جميل

تقول عائشة رضي الله عنها بعد حادثة الإفك والافتراء عليها:

فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأ لي دمعٌ ولا أكتحلُ بنومٍ،

ثم أصبحتُ أبكي.

وقالت بعد أن علمتْ بمشورة أسامة وعلي رضي الله عنهما:

وبكيتُ يومي ذلك لا يرقأُ لي دمعٌ ولا أكتحلُ بنومٍ، وأبوايَ يُظنَّانِ أنَّ البكاءَ فالقٌ كبدي.

وقالت: دخل علينا رسول الله ﷺ فسلّم، ثم جلس فتشهَّد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أمّا بعدُ: يا عائشة! فإنه قد بلغني عنكِ كذا وكذا، فإن كنتِ بريئةً فسيبرِّئُكِ الله، وإن كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبدَ إذا اعترفَ بذنبهِ وتاب تاب الله عليه!

قالت: فلمّا قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلصَ دمعي حتى ما أحِسُّ منه قطرة، فقلتُ لأبي: أجِبْ عني رسول الله، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلتُ لأمي: أجيبي عني

رسول الله، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ

قالت: فقلتُ وأنا جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ لا أقرأُ كثيرًا من القرآن: والله لقد علمتُ، لقد سمعتم بهذا الحديثِ حتى استقرَّ في أنفسكم وصدَّقتم به، فلئن قلتُ لكم: إني بريئة -واللهُ يعلم أني بريئة- لا تُصدِّقونني، ولئن اعترفتُ بأمر والله يعلمُ أني بريئة منه لتصدِّقُنّي، فوالله ما أجدُ لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ "

قالت: ثم تحوّلتُ فاضطجعتُ على فراشي، قالت: وأنا والله أعلمُ حينئذٍ أني بريئة وأن الله تعالى مبرِّئي ببراءتي؛ لكن والله ما كنتُ أظنُّ أن يَنزِل في شأني وحيٌ يُتلى، ولشأني كان أحقرُ في نفسي من أن يتكلّمَ اللهُ فيَّ بأمرٍ يُتلى، ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

قالت: فوالله ما رامَ رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرجَ من أهلِ البيت أحدٌ حتى أنزل الله على نبيّه، فأخذه ما كان يأخذُه من البرحاء عن الوحي حتى إنه ليتحدَّر منه مثلُ الجُمان من العَرق -وهو في يومٍ شاتٍ- من ثِقَلِ القولِ الذي أُنزلَ عليه.

قالت: فسُرّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أولَ

كلمةٍ تكلَّم بها أن قال: "أبشري يا عائشة! أمّا الله ﷻ فقد برأكِ"

قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلتُ: والله لا أقومُ إليه، ولا أحمدُ إلا الله ﷻ هو الذي أنزل براءتي.

وأنزل الله ﷻ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ الآيات العشر من سورة النور [متفق عليه].

وفي القصة وقفات وفيها عبرٌ وعظات

وفي القصّة سلوى لكل مَن أُصيبَ أو أصيبتْ في عِرْضِه أو عِرْضها

وسلوى لكل من قُذِفَ بتُهمةٍ هو منها بريء، والله يعلمُ أنه بريء.

في القصة تقول أمُّنا رضي الله عنها:

وبكيتُ يومي ذلك لا يرقأُ لي دمعٌ ولا أكتحلُ بنومٍ، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي.

وهكذا هي حالُ النساء وحال الضُعفاء،

حين يجدون أنَّ الناس كلَّهم ضدُّهم وأنه لا حِيلةَ لهم

يدافعون بها عن أنفسهم أو يُسكِتون ألسنة السوء عنهم

فلا يجدون سوى الدموع تُنفِّسُ عنهم بعض ما يجدون،

وتطفئُ شيئًا من نارٍ مشتعلةٍ بصدورهم.

وفي القصة ذكرت عائشة رضي الله عنها:

دَخَلَ علينا رسول الله ﷺ فسلّم، ثم جلس فتَشَهَّد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال:

أمّا بعدُ: يا عائشة! فإنه قد بلغني عنكِ كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئكِ الله، وإن كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبدَ إذا اعترفَ بذنبهِ وتاب تابَ الله عليه [صحيح البخاري: 2661].

بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام..

قَدَّم لِزَوْجتِه حلولًا بعد أن أبْلغها ما سمعه عنها، ما هاجمها أو جعلها في موضع اتِّهام

ترك لها فرصةً لتفكِّر فيما تفعله بعد ذنبها إنْ هي أذنبتْ..

ما قذفها بكلامٍ قبيحٍ ثم تركها وذهب، ومَنَعَ عَنْها كل فرصة دفاع

ولا قذفها بكلامٍ قبيح، ثم أمَرَها بأن تُدافِعَ عن نفسِها

بل في أسلوبه الحِكْمةُ والرحمة

أسلوبُ الشفيقِ الرحيم، الذي آلمهُ أن يسمعَ عن زوجتِه ما سمع أولًا طمأنها بأنَّ اللهَ سَيُبرئها إنْ كانت بريئة

وكأنه يُلمِّح لها بأن تَثِقَ بالله وتعلمَ بأنه يسمع ويرى وسينصرُ الذين ظُلِموا

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾

ثم طمأنها أكثر، وذكَّرها بعظيمِ عفو الله، وأنَّ المسلمَ يمكن أن يخطئ و يذنب وهذا أمرٌ عادي؛ لكن الغير عادي أن لا يستغفر، وأن لا يتوبَ، وأن لا يعترفَ أصلًا بأنه أذنب؛ بل ويُلقي بجريرةِ ذنبِه على غيره، ويتَّهمُ غيره بأنه السبب فيما وَقَعَ فيه.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله!

قالت رضي الله عنها:

فقلتُ لأبي: أجبْ عني رسول الله، فقال: والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ.. فقلتُ لأمي: أجيبي عني رسولَ الله، فقالت: والله ما أدري ما أقولُ لرسول الله ﷺ

موقفٌ رائعٌ وحكيمٌ مِنْ أبي بكر الصدِّيق ومِنْ زوجته

لم يدافعا عن ابنتهما، ولم يعترضا على زوجِها ﷺ،

كانا يحميان أنفسهما بألا يَتكَلَّما بكلمةٍ قد تزيدُ الأمرَ سوءًا أو تعقيدًا

قالت رضي الله عنها:

"والله لقد علمتُ، لقد سمعتم بهذا الحديثِ حتى استقرَّ في أنفسكم وصدّقتم به، فلئن قلتُ لكم: إني بريئة – والله يعلم أني بريئة – لا تصدقونني، و لئن اعترفتُ بأمرٍ واللهُ يعلمُ أني بريئة منه لتصدقُنّي، فوالله ما أجدُ لي ولكم مَثلًا إلا كما قال أبو يوسف، ولشدة حزنها نسيت اسم يعقوب: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

مَن قالت هذا الكلام هي نفسها التي قالت: وبكيتُ يومي ذلك لا يرقأُ لي دمعٌ ولا أكتحلُ بنومٍ، و أبواي يظنان أن البكاءَ فالقٌ كبدي.

لأنها الآن أصبحتْ في موضع مواجهة، والدموع لا تكون حلًّا الآن..

الآن هي في موقف دفاع عن نفسها..

فماذا تصنع و هي لا تجد دليل براءتها؟!

وكيف تصنع و هي ترى نظرات التُهمة في عيونِ من حولها؟!

و ماذا تقول وهي تعلَمُ والله يعلمُ أنها بريئة؟!

و بِـمَ ينطق لسانها وهي تعلم أنه لن يصدِّقها أحد، لو تكلمتْ حتى تقوم الساعة؟!

لذا عرفتْ أنه لنْ ينصرَها ولن يُظهِر الحقَّ ويأخـذَ لهـا بحقِّهـا مـمَّنْ ظَلَمَها إلا عالمُ الغيبِ والشهادة رَبُّ السمواتِ و الأرض الذي حَرَّمَ الظلمَ على نفسه.

فأوكلتَ أمرها إليه وهي تعلمُ أنه نِـعمَ الوكيل.

فلمـّا كان هذا حالُها..

و لمـّا كانت بريئة..

و لمـّا صَدَقتْ في توكلها على ربها.

جاء النصر فورًا، وظهرتِ الحقيقةُ، وتجلّتِ الغمامةُ السوداء لتنزل آياتٌ تُـتلى إلى يوم القيامة، آياتٌ فيها عِبرةٌ وعِظةٌ لكل متَّعِظ، وفيها سلوى لكل مظلوم.

وهكذا هم المظلومون..

يتجرَّعون آلامًا كبيرة..

وتغصُّ بهم دموعهم..

تمرُّ عليهم أيامٌ عصيبةٌ، وأوقاتٌ مريرة..

حين يظلمهم الناس..

وحين لا يجدون حيلةً في أخْذ حقوقهم..

وحين تتقطَّعُ بهم السُّبُل..

يعلمون أن في السماء رَبٌّ يُبغِضُ الظُّلمَ ويحبُّ العدل.

لذلك تخرج دعواتهم صادقة ودموعهم تسابق تلك الدعوات، وبقلبٍ صادقٍ متيقّن يعلمون أنهم منصورون، فيأتي الفَرج من عند ربٍّ لا يسهو ولا ينام، عليمٍ بصير، مجيبٍ لدعوة المظلومين..

حينها وحينها فقط يعلم المظلومون ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾

وحينها ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾

علمني الابتلاء

يَمِيْزُ الله في الدنيا الصابر من الجازعِ من خلالِ الابتلاء،
فهو اختبار المؤمن وامتحان المُسلم،
وهو السبيل لقياسِ قدرتِك على الصبر،
وعلى قيمة الإيمان في قلبك، ومستوى الرضا في روحك.
فمِنْ خلال الابتلاء والصبرِ عليه تستطيعُ أن تُؤجر وتكسب الثواب، وتتجاوَز العذاب،
ومن خلالِ الابتلاء تمشي على الأرض كيومِ ولدتك أمُك،
فهو أجر فعّال، وثوابٌ سيّال، يختبرُ الله به من المؤمنين رجال.
إذا أصابَك ابتلاءٌ تذكَّر أحوال الأشدِّ منك ابتلاءً،
فلطالما هانَت عذاباتُ ناسٍ بعد أن رأوْا عذابات غيرهم،
فتوشحوا بالرضا والصبر، وتمنّوا أن يكون الابتلاء خير،
وهذا هو بيت القصيد من صبر المؤمن على ابتلائه.
فلا تنفع الحسرةُ والندم، ولا الجزعُ والهم، ولا الخوف والغم

يكفي أن ترضى بالقضاءِ والقدر حتى تَصِلَ إلى مرحلة القبول والأجر، وتحصد من خلال ابتلائك عظيم الخير.

فافرح بما بين يديك واشكر ربّك عليه،

وإذا أصابك ابتلاءٌ فكُن على ثقةٍ ويقين أنَّ الابتلاءَ اختبارُ المؤمنين المخلصين.

هوِّنْ عليكَ فكلُّ الأمر ينقطِعُ وخَلِّ عنكَ ضباب الهَمِّ يندفِعُ

فكُلُّ همٍّ لهُ مِنْ بعدِه فرجٌ وكلُّ كربٍ إذا ما ضاقَ يتَّسِعُ

إنَّ البلاءَ وإنْ طالَ الزمانُ بهِ فالموتُ يقطَعُهُ أو سوفَ ينقَطِعُ

لذا كن واثقًا أنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا ابتلاه،

حتى يسمع منه الدعاء ودموع الرجاء،

فالغُمةُ تزول بالصبرِ والدعاء،

والهمُّ يذهب بالإيمان والوفاء،

لذا كن شاكرًا على نعمة الابتلاء،

فهو نعمةٌ تستحق الصبرَ والشكر،

حتى إن كان ظاهرها صعبًا فإن في جوفِها أجرٌ لا يُعدّ،

ودعوةٌ لا تُردّ، من واحدٍ أحدٍ من الله الصمد.

إذا ما أتاك الدهر يومًا بنكْبةٍ فأفرغْ لها صبرًا ووسِّع لها صدْرا
فإنَّ تصاريف الزَّمانِ عجيبةٌ فيومٌ ترى يُسرًا ويومًا ترى عُسرا

فبعد الابتلاء يكون الثناء،

فادْفع الابتلاء بالتضرع والدعاء،

فإنَّ المقصود منه هو الفرار إلى الله، والارتماء بين يديه،

وهذا ما يجعله نعمةً عظيمة،

فكثيرٌ من الناس يدفعهم الابتلاء إلى التوجه لباب الله الذي لا يُوصَد، وانتظار رحماته التي لا تتوقف،

ومراقبة فرجه الذي لا يتأخر،

فكن واثقًا أن بَعْد العسرِ يسرًا، وأنَّ العسرَ بين يُسريْن.

فالله قادرٌ على تبديلِ أحوالك، وتخليصك من أهوالك،

فاصبر لتنالَ السعادة في الدارين، وكن واثقًا بموعود الله،

فإن من خلقك وسجدت له شكرًا ودعاءً لن يُضيّعَك،

فتَحَلَّى بالصبر وتزين بالإيمان، ستجد وقتها مخرجًا من الأحزان.

فحين يشتد الألم ويزداد الليلُ حُلكةً وظلامًا،

اجعل دعاءك نورًا يضيء لك هذه العتمة،

ويزيل عنك هذه الغُمة،

فوالله إنّ للدعاء بشائرَ لا يمكن تصوُّرها،

وإن الله إذا أعطى أدهش،

وما من ابتلاء قاسٍ إلا كان بعدَه فرجٌ مُرضي،

وأجرٌ سينسيك عذابات ابتلائك.

يقول الإمام الشافعيّ:

دَعِ الأيَّامَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ وطب نفسًا إذا حكمَ القضاءُ

وَلا تَجْزَعْ لنازلةِ الليالي فما لحوادثِ الدنيا بقاءُ

وكنْ رجلًا على الأهوالِ جلدًا وشيمتكَ السماحة والوفاءُ

ولهذا فهي مليئة بالمصائب والأكدار والأحزان والأمراض والحوادث.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: 155]

وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد: 4]

اعلموا أن الجزع لا يفيد؛ بل يضاعف المصيبة، ويفوت الأجر، ويعرِّض المصاب للإثم

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إن صبرتَ جَرَت عليك المقادير وأنت مأجور،

وإن جَزِعْتَ جَرَت عليك المقادير وأنت مأزور)

وقال بعضهم: المصيبة للصابر واحدة وللجازع اثنتان.

إذا تسلَّينا بالصبر نَحْصُل على حلاوةِ الإيمان، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: 11]

يقول علقمة في تفسير هذه الآية: هو الرجل تصيبُه المصيبة فيعلم أنها من الله، فيرضى ويسلِّم، فيعوضه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه.

ويحصل على معية الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

ويحصل على محبة الله ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

ويحصل على الأجر بغير حساب ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ .

علمني الابتلاء

عَلِمَ المصابُ أنَّ ما يعقب الصبر من اللذة أضعاف ما كان يحصل له لو لم يُبْتَلَ،

ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذي يُبنى له في الجنة على حمده،

فلينظر أيُّ المصيبتين أعظم؟

مصيبة العاجلة؟ أم مصيبة فوات بيت الحمد في جنة الخلد؟

قال ﷺ: «**يَوَدُّ أَهْلُ الْبَلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ أَجْسَادَهُمْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ**» [مصنف ابن أبي شيبة: **10829**]

وقال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس.

علمني الابتلاء

أنّ القضاء جارٍ لا محالة؛ رضيَ العبدُ أم لم يرضَ!

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "إنك إن صبرت جَرَتْ عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جَرت عليك المقادير وأنت موزور"

مَا قَدْ قُضِيْ يا نَفْسُ فَاصْطَبِرِي لَهُ وَلَكِ الأمانُ مِنَ الذي لَمْ يُقْدَرِ

ثُمَّ اعْلَمِي أنَّ المُقَدَّرَ كَائِنٌ حَتْمًا عَلَيْكِ صَبَرْتِ أمْ لَمْ تَصْبِرِي

علمني الابتلاء

أنه تكفيرٌ للسيئات، ورَفْعٌ للدرجات وزيادةٌ في الحسنات وسببٌ خير له،

كما ورد في الحديث أن الرسول ﷺ قال: «مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ، وَلاَ حُزْنٍ، وَلاَ أَذًى، وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا؛ إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» [متفق عليه].

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» [صحيح مسلم: 2999].

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ» [صحيح البخاري: 5645].

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» [سنن الترمذي: 2399].

علمني الابتلاء

محبةَ الله لي، يقول الرسول ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**» [سنن الترمذي: 2396]

لننظر كيف ابتلى اللهُ الأنبياءَ بالأمراض والمصائب،

فيونس عليه السلام في بطن الحوت

وأيوب عليه السلام تمزق لحمه من الدود

وإبراهيم عليه السلام في النار!

فهؤلاء الأنبياء ابتلاهم الله عز وجل؛ لأنه يحبهم ولقوة إيمانهم،

وقد ورد في الحديث أن سعد ابن أبي وقاص سأل النبي ﷺ **أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**» [سنن الترمذي: 2398]

علمني الابتلاء

التداوي بالإلحاح على الله بالدعاء

كثرة الدعاء والإلحاح على الله فيه،

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُلِحِّينَ فِي الدُّعاءِ**» [الدعاء للطبراني: 20]

وعن ثوبان أن الرسول ﷺ قال: «**لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاء**» [ابن ماجه: 90].

وقال: «**لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ، وَمَا لَمْ يَنْزِلْ، وَإِنَّ الدُّعَاءَ لَيَلْقَى الْبَلَاءَ، فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة**» [الأوسط، للطبراني: 2498] أي: يتصارعان ويتدافعان.

يقول ﷻ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾،

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: المضطرُّ المكروبُ المجهودُ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ضَمِنَ الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه.

وقال الزمخشري: المضطر الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجوء والتضرع إلى الله.

علمني الابتلاء

أنَّ مرارةَ الدنيا حلاوةُ الآخرة والنعيم لا يُدرَك بالنعيم

وكما قال ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» [صحيح مسلم: 2956]

الابتلاءات سُنَّةٌ ربّانيَّةٌ اقتضتها حِكمةُ الله سبحانه في هذه الدار؛ لتكون دارًا للامتحان في الشهوات والفقر والمرض والخوف والنقص في الأموال والأنفس والثمرات،

كما يكون الابتلاءُ بكثرة الأموال والأولاد والصحة

قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: 35].

ومن جملة الابتلاءات: الأمراض، حيث يبتلي اللهُ بها من شاء من عباده.

وإذا نزل بالعبد مرضٌ أو مصيبةٌ، فحمد الله واسترجع وصبر؛ إلا أعطاه الله من الأجور ما لا يعلم

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: 10]

فكلُّ الأعمال قد تجد لها أجرًا مُعَيّنًا إلا الصبر؛ لعظمته فأجره بغير حساب.

علمني الابتلاء

أنَّ كلَّ مصيبةٍ دون مصيبة الدين تهون، فهو سِرّ وجودنا، فإن ضيَّعناهُ ضِعنا ولم يعد للوجود معنى!

ثُمَّ إنّ كل مصيبةٍ تهون عند أُختها، فأن تشتكي جُرحًا في يدك خيرٌ من أن تشكو فقدها، والمؤمن مأجورٌ - لو احتسب - حتّى في الشوكة يُشاكها!

قال شريح رَحِمَهُ اللَّهُ: إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عَزَّوَجَلَّ عليها أربع مرات؛ أحمده إذْ لم يجعلها أعظم مما هي عليه، وأحمده إذْ رزقني الصبر عليها والاحتساب، وأحمده إذْ وفَّقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذْ لم يجعلها في ديني؛ فإنَّ مِنْ كُلِّ شيءٍ عِوضًا إلا الدين.."

وَكُلُّ كَسْرٍ لَعَلَّ اللهَ جَابِرُهُ وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّيْنِ جُبْرَانُ

علمني الابتلاء

أنه تهذيبٌ للنفوس وتصفيةٌ لها من الشر الذي فيها

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: 30].

فإذا أُصِيبَ العبدُ فلا يَقُلْ: من أين هذا؟ ولا من أين أتى؟ فما أُصيب إلا بذنبٍ.

قال ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ، وَلاَ حُزْنٍ، وَلاَ أَذًى، وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا؛ إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» [متفق عليه].

وقد روي أن النبي ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ فَقَالَ: «مَا لَكِ؟ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ؟» قَالَتْ: الْحُمَّى، لَا بَارَكَ اللهُ فِيهَا، فَقَالَ: «لَا تَسُبِّي الْحُمَّى، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ» [صحيح مسلم: 2575]

علمني شيخي

سأل شيخٌ طالبه: منذ متى صَحِبتني؟

قال الطالب: منذ ثلاثة وثلاثين سنة!

قال الشيخ: فماذا تعلَّمْتَ مني؟!

قال الطالب: ثماني مسائل!

قال الشيخ: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثماني مسائل!

قال التلميذ: يا شيخي! لم أتعلم غيرها، ولا أحبُّ أن أكذب!

قال الشيخ: هات ما عندك لأسمع!

قال الطالب:

الأولى:

أني نظرتُ إلى الخلق فرأيتُ كلَّ واحدٍ يُحبُّ محبوبًا، فإذا ذهب إلى القبر فارقه محبوبُه،

فجعلتُ الحسناتِ محبوبي، فإذا دخلتُ القبر دخلت معي.

الثانية:

أني نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى

ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: 40و41].

فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله.

الثالثة:

أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت أنَّ كلَّ مَنْ معهُ شيءٌ له قيمةٌ حفظه حتى لا يضيع،

ثم نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96]

فكلما وقع في يدي شيءٌ ذو قيمة وجهته لله ليحفظه عنده.

الرابعة:

أني نظرت إلى الخلق فرأيت كلًّا يتباهي بماله أو حسبه أو نسبه،

ثم نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13]

فعمِلْتُ في التقوى حتى أكون عند الله كريمًا.

الخامسة:

أني نظرت في الخلق وهم يطعنُ بعضُهم في بعض، ويلعنُ بعضُهم بعضًا، وأصلُ هذا كلِّه الحسدُ

ثم نظرت إلى قول الله ﷻ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: 32]

فتركت الحسد واجتنبت الناس، وعَلِمْتُ أنَّ القسمة من عند الله.

السادسة:

أني نظرت إلى الخلق يعادي بعضهم بعضًا، ويبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضًا

ونظرت إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 6]

فتركت عداوة الخلق، وتفرغت لعداوة الشيطان وحده.

السابعة:

أني نظرت إلى الخلق فرأيت كلّ واحد منهم يكابد نفسه ويذِلُّها في طلب الرزق حتى انه قد يدخل فيما لا يَحِلُّ له.

ونظرت إلى قول الله ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6]

فعلمت أني واحدٌ من هذه الدواب، فاشتغلتُ بما لله عليّ، وتركتُ ما لي عنده.

الثامنة:

أني نظرت إلى الخلق فرأيتُ كلَّ مخلوق منهم متوكِّلٌ على مخلوقٍ مِثْلِه؛ هذا على ماله، وهذا على ضيعته، وهذا على صحته، وهذا على مركزه.

ونظرت إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3]

فتركت التوكل على الخلق، واجتهدت في التوكل على الله.

وصُحبةٌ لله تمضي

نعم.. صُحبَةٌ لله تمضي، وما دونها تنتهي مع مرور الأيام!

نعم.. صُحَبةٌ لله تمضي، وما دونها تنكَشفُ مع المصالح والأوهام!

نعم.. صُحبَة لله تمضي، وما دونها وجعٌ وتسجيلُ مواقِفَ وآلام!

إنها الصحبة الواثقة والموثوقة، تزيِّنُها الثقةُ والاحترام

ويعززها الخير والسلام، ويقويها الدعاءُ والإكرام!

إنها الصحبة التي تزداد روعتها بنفحات إيمانية عَذْبة، ومشاعر صادقة صُلْبَة، تسري في عروق الصِحاب تواجه الآلام والعذاب، ولا يستطيع الكلامُ التعبيرَ عنها!

إنها نظراتُ صدق توثق عرى المحبة في الله سبحانه وتعالى،

فوجوه الخير تألَفُ بعضُها بعضا، وكما قيل:

«الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»

إن الأرواح المتشابهة تلتقي دون موعد،

والقلوب المنسجمة تتطابق دون معاناة،

إنها صحبة خالية من التبرير،

بها التماس العذر والدعاء بالخير وتجنب الشر،

بها القلب يشتاق، والفؤاد توّاق، بها اجتماعٌ على ما يرضي الرحمن، ويَكْشِفُ الأحزان.

إن الصحبة لله تتوثق يومًا بعد يوم،

تزدادُ قوةً وتماسكًا وخيرًا، وبها لقاءٌ على رضا الله وفراقٌ عليه،

ينتظرها ظِلُّ عرش الرحمن يوم يتصبب الناسُ عرقًا من لهيب الشمس الحارقة،

إنها علاقة ليست مارقة، إنها صحبةٌ لله وفي الله وبالله.

إنها صحبة لله، تلتقي على الطاعة، وتتوحد على العبادة،

بها الود يزداد ويكبر، والخير ينتشر ويكبر،

بها التكافل عنوان، والمحبة في الله تزين الوجدان،

بها تُمسِكُ يد صاحبِك وصولًا إلى الجنان.

أخـــلاءُ الرخـــاءِ هـــمُ كثيـــرٌ وَلكـــنْ في الـــبَلاءِ هُـــمُ قَلِيـــلُ
فـلا يَغْـرُرْكَ خِلَّـةُ مـن تـؤاخي فمـا لـكَ عنـدَ نائبَـةٍ خليـلُ
وكُـــلُّ أخٍ يقـــول: أنـــا وَفِيٌّ ولكـــنْ لـيسَ يفعَـلُ مـا يَقُـولُ
سـوى خِـلٍّ لـهُ حَسَبٌ ودِيْـنٌ فـذاكَ لمـا يقـولُ هـو الفَعُـولُ

إنَّ صحبةَ هذا الزمان تعلوها المصالح، والكلام الجارح،

ويسيء لها تسجيل المواقف والخدمات، وتعزيز الفُرقة والخلافات، فالوفاء يجب أن يزين الصحبة الصادقة،

والدعاء يجب أن يسقيها ويقويها،

حتى لا تتلاشى مع مرور الزمن وازدياد المِحَن والفِتَن.

كان الواحد منهم يساعد صديقه على التفاؤل، ثم يعود وفي منتصف الطريق تسقط دمعته ويذكر همه!

إن البحثَ عن صاحبٍ صادقٍ يقف عند حدود الله في زماننا مسألةٌ صعبةٌ للغاية،

تحتاج إلى تروي وبحثٍ جيِّدٍ تثبته المواقف والأيام؛

لذا فليكُنْ شعارُك دائمًا أريد صاحبًا ليكونَ صاحبي في الدنيا والآخرة،

نقاسي الدنيا معًا، ونرافق بعضنا في جنان الرحمن بإذنه تعالى

نصحتُكَ لا تصحَبْ سِوى كُلِّ فاضِلٍ خَليقِ السّجايا بالتَّعفُّف والظَّرْفِ
ولا تَعتمِدْ غيرَ الكِرامِ فواحِدٌ منَ النّاسِ إنْ حصَّلْتَ خَيرٌ منَ الأَلْفِ
وأشفِقْ على هَذا الزَّمانِ ومرِّه فإنَّ زمانَ المَرءِ أضلَعُ مِنْ خَلْفِ

قال أحد الحكماء في وصف الصاحب: "اصحَبْ مَن إن صحبْتَه زانك، وإنْ خدمْتَه صانَك، وإن أصابتْكَ خَصاصةٌ مانَك، وإن رأى منك ثَلْمَةً -أي: خللا- سدَّها، وإن رأى منك حسنةً عدَّها، وإن رأى منك سيئةً سترَها، وإن سألْتَهُ أعطاك، وإن تعفَّفْتَ عنه ابتداك، وإذا نزلَتْ بك نازلةٌ واساك، وإن عاتبَكَ لم يحرمك، وإن تباعدْتَ عنه لم يرفضْكَ، وإذا قلتَ صدّق قولَك، وإن تنازعتما في حقٍّ آثرك".

قال ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**»

[مسند احمد: 8417]

تأمّل معي قولَه ﷺ: «**على دينِ**» فالصحبة لأجل الدين لا سواه!

وتأمل معي قوله ﷺ: «**فلينظُر**»

الأمر يحتاج إلى البحث، فلا تستعجل!

لما غاب عثمان بن عفان رضي الله عنه عن البيعة بعذر وضع النبي يده اليمنى على يده اليسرى قائلًا: (وهذه يد عثمان) [صحيح البخاري: 3698]

قيل:

إنَّ أخاكَ الحقَّ مَن كان معكْ ومَن يضرُّ نفسَه لينفعَكْ

ومَن إذا ريبُ الزمان صدَّعَكْ شتّتَ فيكَ شملَه ليجمعَكْ

وما تركناك من بخل و لا قَلَلِ!
لكن خشينا عليك وقفة الخَجَلِ!

شابٌّ ثريٌّ ثراءً عظيمًا، كان والده يعمل بتجارة الجواهر والياقوت،

كان الشابُّ يؤثر أصدقاءه أيَّما إيثار،

وهم بدورهم يُجِلّونه ويحترمونه بشكلٍ لا مثيل له.

دارت الأيام دورتها ويموت الوالد وتفتقر العائلة افتقارًا شديدًا

فقلَّبَ الشابُّ أيامَ رخائه ليبحث عن أصدقاء الماضي

فعلم أن أعز صديق كان يكرمه ويؤثره، وأكثرهم مودةً وقربًا منه قد أثرى ثراءً لا يُوصَف، وأصبح من أصحاب القصور والأملاك والأموال، فتوجه إليه عسى أن يجد عنده عملًا أو سبيلًا لإصلاح حاله.

فلما وصل باب القصر استقبله الخدم والحشم

فذكر لهم صِلته بصاحب الدار وما كان بينهما من مودة قديمة،

ذهب الخدم فأخبروا صديقه بذلك،

نظر إليه من خلف الستار ليرى شخصًا رثَّ الثياب عليه آثار الفقر

صاحب الدار أخبر الخدم أنَّه لا يمكنه استقبال أحد

عاد الرجل والدهشة تأخذ منه مأخذها!

يتألم على الصداقة كيف ماتت؟!

وعلى القيم كيف تذبح؟!

فتذهب بصاحبها بعيدًا عن الوفاء!

وتساءل عن الضمير كيف يمكن أن يموت؟

وكيف للمروءة أنْ لا تجدَ سبيلها في نفوس البعض؟!

في الطريق صادف ثلاثةً من الرجال عليهم أثر الحَيرة وكأنهم يبحثون عن شيء

فقال لهم: ما أمر القوم؟

قالوا: نبحث عن رجل يُدعى فلان ابن فلان، وذكروا اسم والده

قال لهم: إنه أبي وقد مات منذ زمن

حوقل الرجال وتأسَّفوا، وذكروا أباه بكل خير

قالوا له: إن أباك كان يتاجر بالجواهر، وله عندنا قِطَعٌ نفيسة من المرجان كان قد تركها عندنا أمانة

فاخرجوا كيسًا كبيرًا قد مُلِئَ مرجانًا فدفعوه إليه ورحلوا، والدهشة تعلوه!

وهو لا يصدق ما يرى ويسمع!

ولكنه تساءل من سيشتري منه المرجان؟

فإن عملية بيعه تحتاج إلى أثرياء، والناس في بلدته ليس فيهم من يملك ثمن قطعة واحدة

مضى في طريقه

بعد برهة من الوقت صادف امرأةً كبيرة في السن عليها آثار النعمة والخير

فقالت له: يا بني! أين أجد مجوهرات للبيع في بلدتكم

فتسمَّر الرجلُ في مكانه ليسألها

عن أي نوع من المجوهرات تبحث؟

فقالت: أي أحجار كريمة رائعة الشكل ومهما كان ثمنها

سألها إن كان يعجبها المرجان

فقالت له: نعم هو المطلوب

أخرج بضع قطع من الكيس فاندهشت المرأة لِمَا رأت، فابتاعت منه قِطَعًا ووعدته بأن تعود لتشتريَ منه المزيد

وهكذا عادت الحال إلى يُسْرٍ بعد عسر، وعادت تجارته تنشط بشكل كبير.

فتذكر بعد حين من الزمن ذلك الصديق الذي ما أدى حق الصداقة فبعث له ببيتين من الشعر بيد صديق جاء فيهما:

صحبْتُ قومًا لئامًا لا وفاءَ لهمْ يدعون بين الورى بالمكر والحِيَلِ

كانوا يُجِلُّونني مُذْ كُنْتُ ربَّ غنى وحينَ أفلسْتُ عدُّوني من الجُهَلِ

فلمّا قرأ ذلك الصديق هذه الأبيات كتب على ورقة ثلاثة أبيات وبعث بها إليه جاء فيها:

أمَّا الثلاثةُ فقد وافوك من قِبَلِي ولم تَكُنْ سببًا إلا من الحِيَلِ

وأمَّا من ابتاعَتِ المرجانَ فوالدتي وأنتَ أنتَ أخي بَلْ مُنتَهى أملِي

وما تركناك مِنْ بُخْلٍ ومِنْ قَلَلِ لكن خشينا عليك وقفة الخَجَل

روي أنّ المتحابين في الله إذا مات أحدهم ودخل الجنة فإنَّه يدخلها وهو يبحث عن أخيه، فيقول: يا رب! إنّ لي أخًا أحببته فأدخله معي الجنة، فيدخل معه

هنيئًا للمتحابين في الله!

لا لمصلحة ولا لمال ولا لجمال

قال أحد الحكماء: اذا صاحبت في الدنيا فصاحب الطيبين، فإنهم إذا غِبْتَ عنهم فقدوك

وإذا غفلتَ نبَّهُوك

وإذا دعوا لأنفسهم لم ينسُوك

وهم مثل النجوم إذا ضلَّتْ سفينتُك في بحر الحياة أرشدوك

وغدًا تحت عرش الرحمن ينتظروك

ألا يكفيك أنهم في الله أحبوك

زمنٌ مضى

أتى شابّان إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهما يقودان رجلًا من البادية، فأوقفوه أمام الخليفة

قال عمر: ما هذا؟!

قالوا: يا أمير المؤمنين! هذا الرجلُ قتل أبانا

قال عمر: أقتلت أباهم؟

قال الرجل: نعم قتلته

قال عمر: كيف قتلتَه؟

قال الرجل: دخل بجمله في أرضي، فزجرته فلم ينزجر، فأرسلت عليه حجرًا، وقع على رأسه فمات!

قال عمر: القصاص الإعدام

قال الرجل: يا أمير المؤمنين! أسألك بالذي قامت به السماوات والأرض أن تتركني ليلة، لأذهب إلى زوجتي وأطفالي في البادية، فأُخبِرُهم بأنك سوف تقتلني، ثم أعود إليك، والله ليس لهم عائل إلا الله ثم أنا!

قال عمر: من يكفُلك أن تذهب إلى البادية، ثم تعود إليَّ؟

فسكت الناس جميعًا، إنهم لا يعرفونه، وقع الخليفة في حيرة، هل يُقدم فيقتل هذا الرجل، وأطفاله يموتون جوعًا هناك أو يتركه فيذهب بلا كفالة، فيضيع دم المقتول، وسكت الناس، ونكّس عمر رأسه، والتفت إلى الشابين: أتعفوان عنه؟

قالا: لا، من قتل أبانا لا بد أن يُقتل يا أمير المؤمنين!

قال عمر: من يكفل هذا أيها الناس؟

فقام أبو ذر الغفاريّ، وقال: يا أمير المؤمنين! أنا أكفله.

قال عمر: هو قَتْل.

قال: ولو كان قاتلًا.

قال: أتعرفه؟

قال: ما أعرفه!

قال: كيف تكفله؟

قال: رأيت فيه سِمات المؤمنين، فعلمت أنه لا يكذب، وسيأتي إن شاء الله

قال عمر: يا أبا ذرّ! أتظن أنه لو تأخر بعد ثلاث أني تاركك؟

قال: الله المستعان يا أمير المؤمنين!

فذهب الرجل، وأعطاه عمر ثلاث ليالٍ، يُهيئ فيها نفسه،

ويُودِّع أطفاله وأهله، وينظر في أمرهم بعده، ثم يأتي ليقتص منه.

وبعد ثلاث ليالٍ لم ينس عمر الموعد، يَعُدّ الأيام عدًّا، وفي العصر نادى في المدينة: الصلاة جامعة، فجاء الشابان، واجتمع الناس، وأتى أبو ذر وجلس أمام عمر.

قال عمر: أين الرجل؟ قال: لا أدري يا أمير المؤمنين!

وبينما الناس ينتظرون وقد أزفتِ الشمسُ إلى الغروب، ودبّ اليأس في نفوس الحاضرين، وتجهز عمر رضي الله عنه لينفذ حكم الله في الكفيل، وقبل الغروب بلحظات، وإذْ بالرجل يأتي، فكبّر عمر، وكبّر المسلمون معه!

فقال عمر: أيها الرجل: أما إنك لو بقيت في باديتك ما شعرنا بك وما عرفنا مكانك

قال: يا أمير المؤمنين! والله ما عليَّ منك، ولكن عليَّ من الذي يعلم السرَّ وأخفى، ها أنا يا أمير المؤمنين! تركت أطفالي كفراخ الطير لا ماء ولا شجر في البادية، وجئتُ لأُقتل، وخشيت أن يُقال: لقد ذهب الوفاء بالعهد من الناس

فسأل عمر بن الخطاب أبا ذر لماذا ضمنته؟

فقال أبو ذر: خشيتُ أن يُقال لقد ذهب الخير من الناس!

فوقف عمر وقال للشابين: ماذا تريان؟

قالا وهما يبكيان: عفونا عنه يا أمير المؤمنين لصدقه! وقالا: نخشى أن يُقال: لقد ذهب العفو من الناس!

قال عمر: الله أكبر! ودموعه تسيل على لحيته جزاكما الله خيرًا أيها الشابان على عفوكما، وجزاك الله خيرًا يا أبا ذرّ يوم فرّجت عن هذا الرجل كربته، وجزاك الله خيرًا أيها الرجل لصدقك ووفائك.

فأين العفو والوفاء والمروءة في زماننا؟!

لله نمضي لا للناسِ

سَأل موسى عليه السلام ربَّه فقال: يا ربّ! كُفّ عني ألسنة بني إسرائيل.

فقال الله: يا موسى! ما اتخذته لي وأنا رب العالمين! كيف أتخذه لك؟!

وأجملُ الناس أعمى عن مساوئهم وقلبه الحرُّ بالعلياء منشغلُ

حتى لو انحنى ظهرك ليكون جسرًا يعبره الناس،

لن تكسب رضاهم؛ بل قد يشتكون من اعوجاجه

إذا أردت النجاح في هذه الحياة فاعلم أنه ممنوعٌ الالتفات

لا تلتفت لكلام الناس

لا تلتفت للمعارك الجانبية

لأنها ستمنعك من بلوغ هدفك

واصل المسير، واياك أن تلتفت، وإلا ستخسر معركتك!

لما رأى موسى عليه السلام البحر أمامه والعدو خلفه لم يلتفت؛ بل قال بهمة العظماء: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾

هناك بابٌ لا يستطيع كل أعداء الحياة أن يغلقوه وهو: (توفيقُ الله)

وصدق رسول الله ﷺ حينما قال: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ» [سنن الترمذي: 2516].

[من الطويل]

عُداتي لهم فضل علي ومِنَّةٌ ... فلا أذهبَ الرحمنُ عني الأعاديا

همُ بحثوا عن زلتي فاجتنبتُها ... وهم نافسوني فاكتسبتُ المعاليا[1]

(1) ديوان أبي حيان الأندلسي، ص: 415.

في هذه الحياة كن قويًّا فالحياة لا تقبل الضعفاء!

كن قويًّا أمام المحن والابتلاءات

كن قويًّا أمام كلام الناس

كن قويًّا أمام كيد الأعداء

كن قويًّا أمام أعاصير الحياة

قل لمن ينتظر موتك أو سقوطك:

لا تُهَيِّئ كفني ما مِتُّ بَعْدُ لم يَزَلْ في أضْلُعي بَرْقٌ ورَعْدُ[1]

عليك أن تريح نفسك وتفكيرك بكلمات الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه حينما قال: (لنا أقوامٌ لو أسقيناهم العسل المصفى ما ازدادوا فينا إلا بُغْضًا، ولنا أقوام لو قطعناهم إربًا ما ازدادوا فينا إلا حُبًّا)

واللهِ لو وقَفَ الأنامُ جميعُهُم وتآمروا كي يمنعوكَ مُناكا

وأرادَ ربُّكَ أن تنالَ عطاءَهُ لأتاكَ يعْدو رغْمَ كُلِّ عِداكا

(1) البيت لغازي عبد الرحمن القصيبي.

علّمتني الأيام

إنّ للحياةِ دروسٌ وعِبر.. لا يمكنُ تعلُّمُها في أرقى وأحدث الجامعات العالمية أو المعاهد الدولية.

إنها تُعلِّمُ الإنسان بالتجربة العملية وليس بالعلم النظريّ،

عِلمٌ وتجربة يمنحانِ الإنسانَ الخبرةَ على التعاملِ في الظروف والوقائع في حياته.

على مر سنين من العمر تدفعُنا الحياة إلى مواقف متعددة،

وظروف متباينة وأوضاع مختلفة،

كلّها تمثِّلُ إضافات تراكمية في عقل الإنسانِ الباطن،

فإذا ما مرّ قطارُ العمر استعاد هذه التجارب أمام ناظريه ليعلّم بها من لم يعشْها بعد، وليخبِرْ بها من لم يلحق زمانه.

إن تراكم الوقائع في ماضيك يُعلِّمكَ كيف تتعامل مع الحاضرِ المُعاش، ويمنحُك القدرةَ على مواجهة صروف المستقبل والعقبات القادمة؛

لذا عليك التعلّمُ من ماضيك، لا تُغفِل ما عشتَه من تجارب،

اجعلها نصب عينيك، وسِر بها نحو بناء حاضر جيد ومستقبل مميز.

[من الكامل]

ومتى تأمَّلْتَ الزمانَ وجدتَه أجلًا وأيامُ الحياةِ سِقامُ
نُضحِي ونُمسِي ضاحكينَ وإنَّما لبكائِنا الإصباحُ والإظلامُ
ونُسَرُّ بالعامِ الجديدِ وإنما تسْري بنا نحو الرَّدى الأعوامُ
في كلِّ يومٍ زورةٌ مِن صاحبٍ منا إلى بطنِ الثرى ومقامُ[1]

فالأيام تحمل بين ثناياها تجارب ودروسًا كثيرة،

ومعلوماتٍ وقصصًا كبيرة، ومواقف ومسائل غزيرة،

يَجبُ أن تتعلمَ منها،

فكلُّ يومٍ يَمُرُّ إنما يدفعُك حتْمًا نحو القدر المحتوم للقاء الله سبحانه وتعالى؛ لذا لا تُضيِّع يومًا دون فائدة أو عمل أو قول يساهم في أجرٍ يتجدد وثواب لا ينقطع.

كما تعلمُ الحياة، أنَّ الموتَ في إقبال والعمر في إدبار،

وأن الملتقى قادم، والأيام تطوي بعضُها بعضًا،

تسيرُ بنا نحو يومٍ لن يعود، وأفول شمسٍ لن تُشرِق مجدَّدًا،

---

(1) الأبيات للشريف المرتضى.

لذا فإن الحياة بين دَفتي كتاب عمرك،
تبدأ من الصفحة الأولى إلى الأخيرة،
اجتهد أن تكون كلُّ صفحةٍ من صفحاتِ عمرك مليئةً بالخيرات، غزيرةً بالحسنات، كثيرةً في البُشريات.

للدهر إدبارٌ وإقبالُ وكلٌّ حال بعدها حالُ
وصاحبُ الأيَّام في غفلةٍ وليسَ للأيام إغْفَالُ
والمرءُ منسوبٌ إلى فِعْلِهِ والناسُ أخبارٌ وأمْثالُ
ما أحْسَنَ الصبر ولا سيما بالحر إن حالت به الحال

وقال الإمام الشافعيُّ:

الدهر يومان ذا أمن وذا خطر والعيش عيشان ذا صفو وذا كدر

تعلمنا الأيام أيضًا، أن الحياةَ لا يُبكَى عليها
ولا تستحِقُّ الكثيرَ من التعب والعناء،
إلا أنك يجب أن تكون رقمًا مُهِمًّا فيها،
حتى يقولوا: مرّ من هنا، وهذا الأثر،
لكن يجب عليك أن تترك أثرًا طيّبًا

يسيرُ على هديه الناس ويدعون لك بعد غيابك ورحيلك.

الأيام تمضي والعمر يمر،

ودقاتُ قلب المرءِ تقول له يوميًّا؛ بل في كل لحظة:

إن الحياةَ عبارةٌ عن دقائقَ وثواني،

وقتٌ لا يعود، أيامٌ تنتهي، تشرقُ الشمسُ وتَغْرُبُ،

يرتطمُ موج البحر بالصخر وتدورُ عقارب الساعة

وتصحو العصافيرُ وتغفو، والأيام لا تنتظر أحدًا،

فلا تؤخِّرْ هدفك، ولا تقلِّلْ من طموحك،

عليك بالسَّعْيِ كأنك تعيشُ آخر يومٍ في حياتك،

ويجب أن تعمل كأنك ستعيشُ أكثر من عمرِك،

فلا تَسْتَسْلِمَنَّ لليأس، ولا يتملك روحك الإحباط،

حتى تصل إلى ما يكفيك من العيش.

خذ من العيش ما كفى ومن الدهر ما صفا

لا تُلحِنّنَّ بالبكا ءعلى منزلٍ عفا

خل عنك العتاب إنْ خان ذو الودِّ أو هفا

عين من لا يحب وصـ ـلك تبدي لك الجفا

علمتني الأيام أن الآجال بيد الرحمن، وأن الموت يأتي بلا استئذان، وأن أعمل لديني كأنني سأموت بعد لحظات، وأن أعمل لدنياي كأنني سأعيش سنوات وسنوات، وصدَق عبدُ الله بنُ عمرو بن العاص رضي الله عنهما حينما قال:

اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموتُ غدًا [مسند الحارث: 1093]

علمتني الأيام أننا نحنُ لا نعلمُ، نحنُ نتمنّىٰ

اللهُ وحدهُ منْ يعلَم، وهُو الأجدرُ بأنْ ينقُلَنا من ضيقِ اتّباعِ الرّغبة

إلىٰ رحابةِ التّفويضِ، وسكينةِ الاختيارِ.

علمتني الأيام أن الناس يغيرون وجوههم كثيرًا، وأن لا أبحث عن قيمتي في وجوه الناس، وأن لا أجعل لـ (سمعتُ، قالوا، سيقولون) أيّ نصيب.

علمتني الأيام أن القمة تسع للجميع، فلم أحسد أحدًا، وصدق رسول الله ﷺ حينما قال: «**إيّاكُم والحَسَد! فإنَّ الحَسَدَ يَأكُلُ الحَسَنات كمَا تَأْكُل النار الحَطَب**» [سنن أبي داود: 4903]

علمتني الأيام أن أتجاهل كل ما يؤذيني، وأن أفتح في بداية كل يوم صفحة جديدة، فالصفحات البيضاء تدفُعك لأنْ تكتب فيها من جديد، وقد صدق الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ حينما قال: (ما من يوم ينشقُّ فجره إلا وينادَى: يا ابن آدم! أنا يوم جديد، وعلى عملك شهيد، فاغتنمني فإني لا أعود إلى يوم القيامة)

علمتني الأيام أن العصافير تغرِّدُ كلَّ يوم فلا تجد من يشكرُها!

فلم أندم على العطاء، ولم أبكي على الوفاء!

يكفي أن الله يعلم ما في قلبي، وقد صدق الشاعر حينما قال:

مَا ضَرَّنِي بُعْدٌ وَلا هُجْرَانُ قُلْ لِلَّذِينَ تَغَيَّرُوا وَتَنَكَّرُوا
مَا صَابَنِي نَقْصٌ وَلا خُسْرَانُ أَنَا لا أُبَالي إنْ تَبَدَّلَ وُدّكُمْ
مَا عَابَنِي صَدٌّ وَلا نِسْيَانُ مَا دُمْتُ أَحْيَا وَالكَرَامَة دَاخِلِي

علمتني الأيام أن الوطن ليس عبارة عن قطعة أرض، وأنه حيث كان العدل والكرامة فهناك الوطن، فكرامتي في غربتي وطنٌ، وانكساري في وطني غربة، فالنبي ﷺ لم يأمر الصحابة بالهجرة إلى الحبشة لإيمان حاكمها؛ بل لعدالته.

علمتني الأيام أن أبتسم في وجه الناس، فالبسمة صدقة بها ارتياح للقلوب، واختصارٌ للدروب، وهي تفتحُ للمحبة السُبُل، وتُزيح من الأفئدة العِلل!

علمتني الأيام أن أُميطَ الأذى عن قلبي، وأن الراحة في سلامة الصدر من الضغينة والحقد والعداوات، فقد قيل: يا رسول الله! أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ**»، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ، نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: «**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**» [سنن ابن ماجه: 4216].

علمتني الأيام أن البركة ليست بكثرة الأصحاب، فيكفي رفيقٌ تتغير الدنيا ولا يتغير، وصدق رسول الله ﷺ حينما قال: «**لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ**» [سنن أبي داود: 4832]

علمتني الأيام أنه كلما زاد النَّجاح، كلما زاد النُّباح، وأن أمضي بخطوات الواثقين، وليموت في الحياة كلُّ الحاقدين.

علَّمَتني الأيام أنَّ الشدائد هي غربال الناس،

وصَدق الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال:

جزى الله الشدائد كل خير وإنْ كانت تُغصِّصُني بريقي

وما شُكرِي لها إلا لأنِّي عَرفْتُ بها عدُّوي من صديقي

علمتني الأيام أن الشكر عند الحرمان لا ينبغي أبدًا أن يَقِلَّ عن الشكر عند العطاء؛ لأنه سبحانه ما منع ولا أعطى إلا رحمة منه بعباده، فعطاؤه رحمة، ومنعه رحمة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ !

علمتني الأيام أن الأمانَ في جنب الله، وأن العبدَ يأخُذُ بقدر ثقته فيما عند الله، أو تعويله على ما في أيدي الناس من منصب أو جاه أو مال أوسلطان، حيث يأبى الله إلا أن يُظهِر لعباده قهر سلطانه، وأن يبديَ لهم بما لا يدع مجالًا للشكِّ لدى العيان مدى ضعفهم وحاجتهم إليه سبحانه على الدوام!

علمتني الأيام أن مَنْ أحبه الله أظهر له أثرَ معصيته على الفور تعثُّرًا في أمور حياته؛ حتى يسترجع ويتدارك نفسه بالتوبة قبل فوات الأوان، أما من أبغضه فإنه يجعله ينتقل من يُسْرٍ إلى يُسْرٍ، حتى ولو بالغ في معصيته، وذلك لأن أَخْذَتَه ستكون أخذةً مهلكةً لحاضره وماضيه؛ بل ومستقبله! إذ لن يُبالِي الله به في أيِّ أوديةِ الدنيا هَلَك!

علمتني الأيام أن أَقْصَرَ الطُّرق للسعادة هو الصدق مع الله في السر والعلن؛ كي تُصْلَحُ لك الدارين معًا!

علمتني أن الوالدين هما قُبطاني سفينتِك إلى رضوان الله تعالى، وأن الله قد خصص لهما حسابًا مفتوحًا عنوانه (كما تُدِيْنُ تُدان) فمن قصَّر في حقهما لزمه القصور من أبنائه، ومن وفَّى، وفَّى الله له في الدنيا قبل الآخرة!

علمتني الأيام أن أعمل بما لدي من مال عمل الساعي، الذي يوصل البريد إلى أهله دون سؤالهم عن محتواه، فالمال مال الله، والفضل والمنة لله وحده، وما في يدك اليوم من المال سوف تسأل عنه غدًا، فإما أن يكون لك أو عليك! فخيرٌ لك أن تحول ما في يدك اليوم إلى الحساب الذي سوف ينفعك الله به بين يديه غدًا؛ حتى تُكْتَبَ لك النجاة!

علمتني الأيام أن من عاش لنفسه لم يَدُمْ عُمُرُه طويلًا؛ حتى لو زاد عدد أرقام سنوات حياته! أما من عاش لدينه وجعله قضيته الأولى؛ فإنه يحيى في قلوب الناس إلى قيام الساعة، وتمتدُّ سعادته بلا نهاية ما بعد قيام الساعة؛ لأن عِظَمَ أعمالِه باركت آخرته ودنياه معًا؛ حتى ولو لم تدم أيام حياته فيها طويلًا!

علمتني الأيام أن رحمة الله قريبةٌ من المحسنين، فلا تحتقرنَّ إحسانًا ولو كان يسيرًا، وأكثر منه ما استطعت في دنياك، أملًا في أن يُلهمَك اللهُ به النطق بالشهادة لحظة فراقك، فتكون من الناجين في أخراك!

علمتني الأيام أننا لله نمضي لا لسواه

فهرست المحتويات

الإهداء 4
المقدمة 5
﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ 20
هِمَمٌ تناطح السحاب 54
قبل الرحيل 80
قبل أن تعصيه 110
وقفة محاسبة 114
لا تهجره 118
هذا آخرهم! فكيف بأولهم؟ 127
إنَّ ربكم يستزيركم 129
من تَرَكَ بينه وبين الله بابًا دخل منه يومًا ما 133
فإني قريب.. 135
إنّما يولدُ جنينُ الفرج... بعدَ مخاضِ الابتلاء 144
إنه أَوَّاب 151
في الغار 154

﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ...﴾ 153
استدعاء 161
سلاحٌ لا يُستهان به 164
فصبرٌ جميل 167
علمني الابتلاء 175
علمني شيخي 190
وصُحبةٌ لله تمضي 194
لكن خشينا عليك وقفة الخَجَلِ! 199
زمنٌ مضى 204
لله نمضي لا للناسِ 208
علَّمتني الأيام 211
فهرست المحتويات 221

لِلَّهِ نَمْضِي

كيفَ حالُكَ يا رَفيقي؟ هَلْ عَلَيْكَ اللَّيلُ حالِك؟
قُمْ مَعِي لِلَّهِ نَمْضِي كُلُّ مَا بِالكَوْنِ هَالِك!

تم التنضيد الضوئي والتصميم الفني والطباعة والتجليد بعناية وإشراف

دار الكلمة الطيبة للمعرفة

ISBN 978-9920-583-26-8